القسم الأول

اللغة العربية فى مصر

مقدمة القسم الأول

قصة اللغة العربية فى مصر من القصص الشائقة التى تستحق التسجيل ، وتغرى بالدرس . وهى - من ناحية ثانية - قصة لم تبذل الجهود الكافية - حتى الآن - لتحليلها ، ورصد حركاتها على الرغم من قدمها وطول العهد بها . وهى - بالإضافة إلى هذا - قد اختلطت بكثير من الشوائب لارتباطها من ناحية بانتشار الإسلام ، وما أكثر ما قيل عنه إن صدقا أو كذبا ، ومن ناحية أخرى باللغة القبطية ، وما أكثر ما بولغ فى تصوير أثرها على اللغة العربية سواء من ناحية الإيجاب أو السلب .

وأخطر فترة فى تاريخ اللغة العربية فى مصر ، هى تلك التى تبدأ مع الفتح العربى (عام ١٩ هـ = ٦٤٠ م) حين كانت اللغة القبطية ما تزال لغة حية يتكلمها عامة الشعب فى طول البلاد وعرضها - وتمتد لتغطى قرابة ثلاثة قرون أخذ ظل اللغة القبطية ينحسر فيها عن البلاد رويدا رويدا إلى أن تلاشى من الوجود أو كاد.

ومن أجل أهمية تلك الفترة التى سبقت أو تلت مباشرة استقرار اللغة العربية فى مصر ، وعمق الخط الذى حفرته على عربية مصر رأيت أن أخصها بهذا البحث ، وأفردها بالحديث . وقد راعيت فيما كتبت أن أتجنب التفصيلات والتشعيبات الكثيرة بقدر المستطاع ، والتزمت بساطة العرض ، ووضوح الفكرة ما أمكن ، حتى يفهمنى القارىء العادى ، ويستفيد من البحث المتخصصون وغير المتخصصين على السواء .

وقد لاقى كتابى «تاريخ اللغة العربية فى مصر» ترحيبا منذ اللحظة الأولى لصدوره ، واحتفل به الكتاب والأدباء والمؤرخون ، وتم تقديمه وعرضه والتعليق عليه فى الإذاعة والصحف والمجلات . وكان أهم مالفت نظرى مما كتب عنه ثلاث مقالات هى .

١- المقال الذى نشره الأديب الشاعر الأستاذ أحمد عبدالمعطى حجازى فى مجلة «روز اليوسف» . وقد أثنى صاحب المقال ثناء مستطابا على الكتاب ومؤلفه ، رغم عدم سبق معرفته لى .

٢- المقال الذى نشرته الباحثة السيدة فردوس عبدالمنعم فى مجلة الأدب (عدد فبراير ١٩٧١) .

٣- المقال الذى نشره الزميل الدكتور محمد عيد فى مجلة الثقافة (عدد فبراير ١٩٧٤) .

وكان مما علقت به السيدة فردوس على الكتاب أنه «سار على هدى ما كتبه الباحثون القدامى والمحدثون ، بجانب الوثائق والبرديات القديمة العربية منها والقبطية ، وتوصل بذلك إلى نتائج موضوعية بعيدة تماما عن التعصب أو المبالغة». كما اعتبرت الباحثة الفاضلة الكتاب «من أهم ما نشر فى هذا الموضوع الشائك ... الذى يكتنفه كثير من الصعاب ، بل والمتاهات بين دروب التاريخ المتعرجة من ناحية ، ثم بين حنايا علوم اللغة تاريخيا واجتماعيا وثقافيا من ناحية أخرى» .

كما كان مما ورد فى مقال الدكتور محمد عيد : «هذا الموضوع الشديد الحيوية والصلة بحياتنا تناوله كتاب (تاريخ اللغة العربية فى مصر) لباحث مصرى ممتاز هو الدكتور أحمد مختار عمر الذى هيأ نفسه للدراسة الجادة المستنيرة فى

مصر وأوربا ، وتزود من الثقافتين العربية والأجنبية وأجادهما ، ثم وهب نفسه كلية لخدمة اللغة العربية دراسة وتدريسا وتاريخا» . كما تحدث عن خطة الكتاب فقال : «المؤلف فى تقسيم الباب الأول من كتابه باحث أكاديمى ملتزم ، إذ بدأ أولا بفصل شرح فيه علميا العوامل التى تحكم الصراع اللغوى ، ثم أردفه بفصول ثلاثة تتبعت هذا الصراع وتطوره» ، وقال : «أما الباب الثانى فقد درس المؤلف فيه الخصائص اللغوية لعربية مصر ، وفيه درس المؤلف مادة اللغة العربية من خلال أوراق البردى وكتابات علماء مصر من عرب وأقباط . والتزم فى إيراد هذه الخصائص فصل مستويات اللغة الثلاثة وهى : المستوى الأدبى ، ونصف الأدبي، والعامى ، وبهذا الالتزام العلمى الشاق لبيان الخصائص المتعددة جاء هذا القسم من الكتاب انعكاسا حيا ودراسة جادة للمؤثرات الثلاثة التى تركت بصماتها على عربية مصر ، وهى اللغة القبطية ، واللهجات العربية ، وبعض المؤثرات الثانوية الأخرى ، مثل عامل النزوع إلى السهولة وتوفير الجهد ، وعامل الاقتراض من لغات أخرى غير القبطية واليونانية» .

وقد نفدت طبعة الكتاب الأولى بعد وقت قصير من صدورها ، وكان الزملاء والأصدقاء يستحثوننى على إعادة طبعه ، ولكننى كنت أؤجل التفكير فى ذلك حتى تكتمل عندى بعض المعلومات الإضافية التى تسمح بتغذية مادة الكتاب ، وتقديمها فى صورة جديدة . وكنت طوال العشرين سنة الماضية أجمع كل ما يصادفنى مما يدخل فى موضوع الكتاب ، كما كنت أسعى للحصول على بعض المراجع المتعلقة بالموضوع ، والتى لم يسبق لى الاطلاع عليها . ولعل أهم ما يستحق الإشارة إليه من هذه المراجع ما يأتى :

١- القبائل العربية فى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة ، للدكتور عبدالله خورشيد البرى .

٢- شخصية مصر للدكتور جمال حمدان .

٣- الأدب العربى فى مصر للأستاذ محمود مصطفى .

4- The Coptic Influence on Egyptian Arabic, by Dr. Wilson Bishai.

5- Notes on the Alleged Coptic Morphological Influence on Egyptian Arabic, by Heikki Palva.

وهكذا أتاح لى التأنى فى إعادة طبع هذه الدراسة فرصة كبيرة لإعادة النظر فيها ، وتطوير لبعض فصولها ، وإعادة الصياغة لبعض آخر .

ولا أجد ما أختم به هذه المقدمة أفضل من اقتباس العبارة التالية من مقال الزميل الدكتور محمد عيد : «وبعد : فإن هذا الكتاب الممتاز قد لبى حاجة أكيدة فى المكتبة العربية . أما مؤلفه فله جزاء العاملين الصابرين الذين يستعذبون العذاب ، ويعانون الصعاب ليقدموا لثقافتنا العربية الحديثة لبنات تضاف إلى بنائها العملاق . وحسبه أنه عرض قضية قومية جادة ، فأثبتها بفعهم وعلم وموضوعية ، ودافع عنها بأصالة ومعاصرة» .

تمهيد

اللغة العربية فى مصر

قبل الإسلام

لم تكن اللغة العربية غريبة على مصر حين جاء الإسلام إليها ، فقد كان لها هناك تاريخ طويل يمتد عدة قرون قبل ظهور الإسلام ، وربما قبل ظهور المسيحية أيضا ، حين كانت وفود القبائل العربية تقصد مصر إما للتجارة أو للاستقرار .

فمن ناحية التجارة ، أشار المؤرخون إلى أنه كانت هناك خطوط تجارية برية وبحرية تصل بين مصر والجزيرة العربية . وتفيد المصادر اليونانية واللاتينية[١] وغيرها أن مدينة غزة كانت فى ذلك الوقت ميناء تجاريا هاما ، ومركزا يلتقى فيه التجار ورجال الأعمال لعقد الصفقات التجارية . وكان التجار العرب يقدمون إليه لبيع ما عندهم من حاصلات اليمن وجنوب الجزيرة العربية وشراء ما يلزمهم مما يرد على هذه المدينة من البحر من حاصلات اليونان وإيطالية ومصر وغيرها . وتشير إحدى الوثائق[٢] التى يرجع تاريخها إلى عام ٢٦٣ ق . م إلى وجود علاقات تجارية بين المصريين والعرب فى تلك الفترة النائية . ومن الثابت كذلك أن عمرو بن العاص زار مصر قبل الفتح الإسلامى بوصفه تاجرا ، وذهب إلى الدلتا ومن بعدها إلى الإسكندرية[٣] ، وأن خبرته بالبلاد المصرية هى التى جعلته يفكر فى غزوها ويغرى الخليفة بذلك ، وهى التى سهلت له عملية الفتح .

وأما بالنسبة للهجرات العربية بقصد الاستقرار ، فقد كانت هناك كثير من الموجات دفعت بها بلاد العرب إلى مصر فى العصور الفرعونية .

---

(١) تاريخ العرب قبل الإسلام ، تأليف جواد على ٨/١٣٢ .

(٢) المرجع السابق ٨/٦٧ و ٦٨ .

(٣) الكندى : الولاة ص ٦ – ٧ طبعة بيروت ١٩٠٨ ، وانظر تاريخ مصر الإسلامية للشيال ص ٥ وما بعدها .

وكان طريق سيناء قنطرة ثابتة مفتوحة للهجرات منذ القدم . ومن هذه الهجرات ما كان يؤخذ فيه رأى حاكم مصر ويتم بموافقته . وقد أشار المؤرخون إلى سلسلة من تلك الهجرات أخذت مكانها قبل الفتح الإسلامى ، ومن بينها :

١- هجرة قبائل كهلانية من عرب الجنوب ذات أصل قحطانى استقرت فى الجزء الشمالى الشرقى من مصر . وقد تم ذلك مع مطلع المسيحية [١] .

٢- هجرة قبائل من «طيىء» (فرع كهلانى آخر من المجموعة الجنوبية) كان من أهمها قبليتا لخم وجذام اللتان استقرتا فى إقليم الشرقية [٢] .

٣- قبيلة «بلى» التى دخلت مصر قبل الإسلام واستوطنت ما بين القصير وقنا . وكان عليهم الاعتماد فى نقل التجارة الهندية . وقد قدم وفد منهم إلى الرسول وأسلموا [٣] .

٤- هجرة بطون من خزاعة ، وهم فرع من الأزد خرجوا فى الجاهلية إلى مصر والشام لأن بلادهم أجدبت .

٥- استقرار بعض الجماعات العربية قبل الإسلام فى شرق الدلتا .

٦- وقد أشار المؤرخون اليونان بما فيهم استرابو (٦٦ ق . م) وبلينيوس (٧٠ م) إلى أن عدد العرب فى عهدهم قد تضاعف على الضفة الغربية من البحر الأحمر حتى شغلوا كل المنطقة بينه وبين نهر النيل فى أعلى الصعيد . وكان لهم جمال ينقلون عليها التجارة والناس بين البحر الأحمر والنيل [٤] . وقد

---

(١) عباس عمار : The People of Sharqiya (القاهرة ١٩٤٤) ٢١/١ .

(٢) المرجع السابق ٢٣/١ .

(٣) المرجع السابق ٢٤/١ ، وانظر شخصية مصر ٢٩٩/٢ .

(٤) انظر «البيان والإعراب» ص ٨٩ .

وصف استرابو كذلك مدينة قفط Koptos بأنها مدينة واقعة تحت حكم العرب[١] ، وصرح بأن نصف سكانها يتكونون من أولئك العرب [٢] .

٧- ذكر هيرودوت أن [٣] الأقسام الشرقية من مصر بين سواحل البحر الأحمر ونهر النيل كانت مأهولة بقبائل عربية .

٨- كانت توجد علاقات بين المصريين والثموديين فيما قبل الميلاد وبعده ، ويدل على ذلك أن مجموعة النصوص الثمودية المتناثرة الآن فى المتاحف الأوربية وفى مكتبات بعض الجامعات وفى أوراق المستشرقين قد عثر عليها فى أماكن مختلفة من بينها شبه جزيرة سيناء ومصر نفسها [٤] .

٩- فى عهد عمر بن الخطاب - بعد فتح الشام وقبل فتح مصر - هاجرت بعض القبائل من غسان ولخم وجذام وعاملة - التى كانت تدين بالمسيحية - إلى مصر ، واستقرت هناك فى الجزء الشمالى الغربى من «سيناء» . وقد منحهم الإمبراطور الرومانى حينذاك إقطاعية «تنيس» (صان الحجر) [٥] . وقد قابلت النجدة التى أرسلها عمر بن الخطاب عبر وسط سيناء لمساعدة عمرو جمعا هائلا يبلغ نحو ثلاثة آلاف ، وحين سألوهم عرفوا أنهم من عرب غسان ولخم وعاملة [٦] .

---

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية مادة Kibt ص ٩٩١ (طبعة أولى) . والبيان والاعراب للمقريزى ٨٩ .

(٢) عروبة مصر من قبائلها ، للأستاذ مصطفى كامل الشريف ص ٢٢ . (المطبعة العالمية سنة ١٩٦٥) ومصر العربية الإسلامية للدكتور على حسن الخربوطلى ص ١٥ .

(٣) جواد على : تاريخ العرب قبل الإسلام ٧/٢٥ و ٢٦ .

(٤) القبائل العربية فى مصر لخورشيد ص ٢١ .

(٥) المقريزى : البيان والإعراب ص ٩٠ - ٩١ (طبعة القاهرة ١٩٦١) .

(٦) عروبة مصر من قبائلها ص ٢٣ .

وبالإضافة إلى هذا فإن الوثيقة السابق الإشارة إليها ، والتى يرجع تاريخها إلى عام ٢٦٣ ق . م تفيدنا أنه كانت توجد فى ذلك الوقت المبكر جالية عربية كبيرة مكونة من القبائل التى هاجرت من جنوب الجزيرة العربية واستقرت فى مصر . وإنه لمن الأهمية بمكان أن نذكر هنا أن لغة هذه الوثيقة تبدو قوية الصلة باللغة العربية ، مما يدل على أن هؤلاء العرب كانوا يكوّنون جزيرة لغوية فى مصر ، وأن هذه الجالية ظلت مخلصة لقوميتها محتفظة بأبجديتها تكتب بها وتعتز بتراثها . والوثيقة قصيرة ، ولكنها ذات أهمية كبيرة لأنها تحدثت عن وجود العرب الجنوبيين بمصر فى ذلك العهد السحيق ، وعن وجود علاقات تجارية ربطت بين مصر وجزيرة العرب من البر والبحر . وهى تتحدث أيضا عن رجل اسمه «زيد بن زيدايل» اعترف بوجود دين عليه وواجب هو توريد وتزويد بيوت آلهة مصر بالمر وقصب الطيب . ومن الكلمات التى وردت فى هذه الوثيقة ، والتى يمكن بسهولة ردها إلى أصل عربى أوسامى الكلمات «دين» التى استعملت فى نفس معناها العربى ، و «نفقس» التى تعنى ثروته أو نفقته من الأصل الثلاثى «نفق» ، و «محرمهى» التى تعنى الحرم ، و «رثد» التى تعنى رصد أو خصص .

وعلى أى حال فمن الطبيعى أن يكون قد نشب نوع من الاحتكاك فى ذلك الوقت بين اللغتين العربية والمصرية ، وأن يكون قد حدث بينهما قدر ما من التبادل. ويبدو أن آثار كلتا اللغتين على الأخرى كانت قوية لدرجة أنها خلقت تشابها أو تقاربا بين اللغتين أدى ببعض اللغويين المحدثين أن يزعموا وجود قرابة بين اللغتين . أو بين المجموعتين السامية والحامية [1] . (من المجموعة السامية

---

(١) انظر Irach Jehangier Sorabji : Elements of the Science of Language, Calcutta, 1932 .

اللغة العربية ومن المجموعة الحامية اللغة المصرية القديمة) . ولكن رأى بعضهم أن هذا التشابه سببه ما حدث من اختلاط بين الساميين والمصريين فى العصور السحيقة . وممن حاول اكتشاف العلاقة بين اللغات السامية والحامية المستشرق المشهور أوليرى (دى لاسى) الذى كتب بحثا حاول فيها أن يبين أوجه الشبه بين العائلتين اللغويتين[١] .

وقد كان نفوذ اللغة المصرية (أو اللغات المصرية إذا أردنا بهذا المصطلح ما يشمل اللغة اليونانية التى كان صاحبة نفوذ فى مصر فى تلك الفترة) على اللغة العربية كبيرا من ناحية المفردات . فهناك كلمات مصرية كثيرة دخلت اللغة العربية وأصبحت ينظر إليها على أنها من اللغة الأدبية النموذجية . من هذه الكلمات ألفاظ نحو «قبس» التى وردت فى القرآن الكريم ، و «صداع» ، و «مشط» التى وردت فى الحديث النبوى : الناس سواسية كأسنان المشط ، وكلمة «برْدى» التى وردت فى شعر الأعشى .

وقد ذكر السيوطى [٢] – إلى جانب ذلك – قائمة من الكلمات التى وردت فى القرآن الكريم ولها – على ما يزعم – أصل قبطى . ومما ذكره فى هذا الخصوص قوله : وفى قوله تعالى «ولات حين مناص» ، أى فرار بالقبطية . وفى قوله تعالى «بضاعة مزجاة» أى قليلة بالقبطية . وحكى الكرمانى وغيره فى قوله تعالى : «فناداها من تحتها» أى بطنها بالقبطية . وفى قوله تعالى «فى الملة الآخرة» أى الأولى بالقبطية ... وواضح أن قائمة السيوطى لايمكن التسليم بها مطلقا ولذا فنحن لانعطيها أى اعتبار .

---

(١) انظر مقدمة كتاب Characteristics of the Hamitic Languages .

(٢) المتوكلى فيما ورد فى القرآن باللغة الحبشية والفارسية ... ص ١٢ .

وهناك قائمة أخرى كبيرة لكلمات ذات أصل يونانى ، ولكن أحدا لايمكنه أن يقطع هل كان انتقال هذه الكلمات إلى اللغة العربية قد تم فى مصر أو فى سورية.

وعلى الجانب الآخر كانت الكلمات السامية تتدفق بمقدار كبير على اللغة المصرية ، ولم يقتصر ذلك على أسماء السلع والبضائع والأسلحة والخيل والعربات وأدوات الحرب ، بل تجاوزه إلى ألفاظ الحياة اليومية ... وقد لاحظ الباحثون وجود ألفاظ مصرية قديمة تشبه ألفاظا سامية وبخاصة تلك الكلمات المشتقة من أصول ثنائية[١] .

وخلاصة القول أن اللغة العربية كانت تتكلم فى مصر فى فترة ما قبل الإسلام بين أبناء الجاليات العربية وعلى ألسنة التجار العرب وأن تبادلا حدث بين اللغتين المصرية والعربية ، أدى إلى ترك آثار من كلا الجانبين على الآخر ولكن دون أن يفقد أى منهما شخصيته .

---

(١) القبائل لخورشيد ص ١٦ .

الباب الأول

استيطان اللغة العربية فى مصر

الفصل الأول

الصراع بين اللغتين

نظرة عامة

لقد ظهر الصراع الحقيقى بين اللغتين العربية والمصرية – والتى سنسميها منذ الآن باللغة القبطية [1] – بشكل واضح بعد الفتح الإسلامى لمصر . فقد حدثت

---

(١) القبط – وكذلك الأقباط – اسم أعطاه العرب للمصريين حتى من قبل الفتح الإسلامى ، وفى الحديث النبوى : استوصوا بالقبط خيرا» . وقد اشتهر نوع من الثياب منذ الجاهلية باسم القبطية وجمعه العرب على «قباطى» .

وتذهب المراجع العربية القديمة فى تفسير كلمة «قبط» مذهبا أسطوريا فتزعم أنها مشتقة من اسم ملك لمصر القديمة كان يدعى قبطيم بن مصر ايم بن مصر بن حام بن نوح .

أما المحدثون فلهم فى تفسيرها آراء عدة منها :

(أ) أنها اشتقت من مدينة Koptos (قفط) .

(ب) أنها تحريف للكلمة Jacobites (اليعاقبة) . وبعض المراجع تطلق على المصريين الأقباط الذين وجدوا أثناء الفتح اسم اليعاقبة ، وهم الذين غلب عليهم فيما بعد اسم الأقباط الأرثوذكس ، وكانوا يكونون أغلبية فى مصر .

(ج) أنها تحريف للكلمة اليونانية Koptoi التى كان يطلقها اليونانيون على المصريين لأنهم كانوا يجرون الختان على أولادهم .

(د) وأقرب الآراء إلى الصحة أن الكلمة ترجع إلى الأصل الآشورى «هيكوبتاه» أى «بيت روح بتاح» وحولها اليونان إلى Aigyptios «إيجبتوس» . وقد ورد هذا الاسم مرات فى شعر هوميروس. فإذا حذفنا علامة الرفع اليونانية – «أوس» تبقى «إيجبت» المستعملة فى اللغات الأوربية للدلالة على مصر ، وهى مركبة من كلمتين : إى = دار + جبت = قفط .

(هـ) وهناك رأى يقول إن (إيجبتوس) تحريف إغريقى للاسم المصرى (إج – بت) ومعناه : أرض الطمى أو الفيضان .

إذا ذاك معركة كبيرة بين اللغتين انتهت بهزيمة كاملة للغة القبطية ونصر مبين للغة العربية . ولم يحدث هذا - بالطبع - دفعة واحدة ، وإنما خطوة بعد خطوة واستغرق فترة طويلة بالمقارنة بما حدث فى أماكن أخرى من العالم الإسلامى .

وقد كانت هزيمة اللغة القبطية نتيجة لأسباب متعددة عملت كلها فى صالح اللغة العربية ، كما أن تأخير هذه الهزيمة يمكن أن ينسب - من ناحية أخرى - إلى عقبات معينة عطلت التقدم السريع للغة العربية .

= ويبدو على كل حال أن هذه الكلمة استعملت أول ما استعملت وأريد بها غير المسلمين من المصريين ، من غير نظر إلى عقيدة معينة ، ثم بمرور الوقت أصبح اللفظ علما على المسيحيين المصريين ، ولم يعد يتضمن أصحاب أى ديانة أخرى .

وتعتبر اللغة القبطية المرحلة الأخيرة للغة المصرية القديمة . وأهم ما يميزها عنها :

١- أنها كتبت بأبجدية يونانية بعد أن كانت تكتب بحروف معظمها ديموطيقية .

٢- أنها دخلتها مفردات وتعبيرات يونانية .

٣- أنها أبدلت بعض الأصوات فى الكلمات .

٤- أنها كتبت بالحروف الساكنة والمتحركة (الحركات) بعد أن كانت لاتذكر الحروف المتحركة.

٥- أنها اشتملت على كلمات غير موجودة فى المصرية القديمة وتركت كلمات موجودة فى المصرية القديمة .

(انظر حضارة مصر فى العصر القبطى لمراد كامل ص ٦٩)

وقد قسم العلماء القبطية إلى ست لهجات أربع منها فى مصر العليا (الفيومية ، والأسيوطية ، والإخميمية والصعيدية ، وقد صارت الأخيرة بعد القرن الخامس الميلادى اللهجة الشائعة فى كل مصر العليا) ، واثنتان فى مصر السفلى (البشمورية والبحيرية ، وقد استعملت الأخيرة فى كل النصوص القبطية فى الأغراض الدينية منذ القرن الحادى عشر) . (انظر : دائرة المعارف البريطانية ٦١٥/٣) . وبعضهم قسم القبطية إلى فروع ثلاثة هى الصعيدية ، والبحيرية والبشمورية (والأخيرة كانت مستعملة فى بلاد البشمور التى لايعرف مكانها بالتحديد) . (انظر الأساس المتين ص ٩٢).

وقبل أن نناقش هذه الأسباب وتلك العقبات نحب أن نمهد بحديث قصير عن العوامل الرئيسية التى تتحكم فى صراع اللغات ، والتى يسرى مفعولها على أى لغتين يحدث احتكاك بينهما . هذه العوامل هى :

١- العامل السياسى .

٢- العامل الاقتصادى .

٣- العامل الدينى .

٤- الفترة الزمنية التى تسود فيها العوامل السابقة كلها أو بعضها .

٥- مدى اندماج أصحاب اللغة الوافدة مع أصحاب اللغة الأصلية ، وطريقة معاملتهم لهم .

٦- عامل الهيبة أو التفوق الذاتى للغة .

٧- درجة القرابة بين اللغتين المتصارعتين [١] . فكلما زادت القرابة بينهما قوى جانب انتصار إحداهما على الأخرى ، ويكون المرجح هو العوامل الأخرى . وكلما ضعفت القرابة بينهما أو اختفت ضعفت فرص انتصار إحداهما على الأخرى ، وإن لم يمنع ذلك من حدوث الانتصار .

وقد لعبت هذه العوامل كلها دورا هاما فى صالح اللغة العربية وتعاونت فيما بينها لتنهى حياة اللغة القبطية فى مصر .

فإذا نحن نظرنا إلى العاملين السياسى والاقتصادى وجدنا أنهما كانا يعملان فى صالح اللغة العربية . فمما لاشك فيه أن القوة كانت فى أيدى العرب

---

(١) انظر J. Vandryes : Language ص ٢٨١ - ٢٨٢ ، وعلم اللغة لوافى ص ٢٠٩ وما بعدها .

الذين بذلوا أقصى وسعهم لتعريب البلد ونشر الإسلام . وقد أدت عمليات التعريب ونشر الإسلام إلى نتائج اقتصادية هامة كان لها أثرها فى دعم اللغة العربية ورفع شأنها فى مصر . وقد كان من أهم الخطوات التنفيذية التى خطاها العرب ، والتى قوت جانبى الإسلام واللغة العربية فى مصر ما يأتى :

١- إحلال اللغة العربية محل اللغة اليونانية أو القبطية فى الدواوين وفى المكاتبات الرسمية .

٢- تهجير عديد من القبائل العربية إلى مصر بقصد الإقامة الدائمة .

وقد أحصى الدكتور عبدالله خورشيد مجموع القبائل والبطون التى وفدت إلى مصر فى القرون الثلاثة الأولى للهجرة فوجدها تبلغ ٢٤٤ أكثرها من قحطان (١٧٢) . كما وجد أن أكثر القبائل بطونا وأضخمها عددا كانت قريش والأزد وغافق وتجيب والمعافر وخولان ومراد وحضر موت ...

وقد كان للولاة دخل فى زيادة عدد العرب ، لأن الوالى كان يدخل مصر فى عدد كبير من الأعوان معظمهم من بنى قبيلته ، وكان هؤلاء يبقون فى مصر ويستمرون مقيمين فيها بعد انتهاء ولاية الوالى حيث ينضمون إلى قبائلهم فى مصر .

ومن أمثلة ذلك ما فعلة الحوثرة بن سهيل الأمير القيسى الذى ولى مصر سنة ١٢٨ هـ فزاد عدد قيس من ١٥٠٠ إلى ٣٠٠٠ . كذلك دخل مع الأمير يزيد بن حاتم عدد من قبيلة الأزد سنة ١٤٤ هـ . وصحب المطلب الخزاعى قوم من قبيلته ، وفى سنه ١٧٢ ولى مصر مسلمه بن يحيي البجلى فدخلها فى عشرة آلاف من الجند كان كثير منهم من بجيلة [١] .

---

(١) القبائل العربية ص ٥٤ ، ١٠٢ ، ٢٢٤ . وانظر شخصية مصر ٢٩٩/٢ .

٣- إحلال بعض المسلمين محل الأقباط فى الوظائف الرسمية .

٤- فرض أنواع مختلفة من الضرائب على الأقباط .

فإذا انتقلنا إلى العامل الدينى ، نجد من الثابت أنه لم يكن هناك ضغط مباشر على الأقباط ليعتنقوا الإسلام - إلا ما ندر - ولكننا نجد من الثابت أيضا أنه كانت هناك امتيازات معينة يتمتع بها المسلمون دون الأقباط مثل تفضيلهم عند شغل الوظائف القيادية بالإضافة إلى عامل الهيبة الذى يتمتع به المسلمون باعتبارهم الطبقة الحاكمة . وقد أغرى هذا وذاك مجموعة من الأقباط أن يعتنقوا الإسلام لينعموا بالمساواة فى ظله [١] . ومن ناحية أخرى فإننا نجد عددا آخر يعتنقون الإسلام طواعية واختيارا مدفوعين بما يحتويه من تعاليم صادقة وروح جديدة أو ليحققوا لأنفسهم مصلحة دنيوية [٢] ، بل منهم من لم يكتف بذلك فادعى أصله العربى وانتسب إلى إحدى القبائل العربية [٣] . ومن البديهى أنه إذا اعتنق

---

(١) يقول ولسن بشاى : إن كراهية المصريين للبيزنطيين أدت بهم إلى الترحيب بالمسلمين كمحررين دينيين وبخاصة بعد ماتمتعوا بالأمن والحرية فى ظل الولاة المسلمين الأوائل ، وهى الحرية التى سمحت لهم أن يمارسوا شعائرهم الدينية ، وأن يقيموا كنائس جديدة (The Coptie Influence ص ١٢) .

(٢) يمتلىء التاريخ بنماذج من هذا النوع ، مثل يعقوب بن كلس اليهودى الذى اعتنق الإسلام فى ظروف لاتؤيد بحال صدق عواطفه الدينية . كان أصله من بغداد ، وقدم إلى مصر فى عهد كافور الإخشيدى ، وكان رجلا واسع الذكاء والحيلة . وحين علم أن كافورا قال عنه «لو كان مسلما لاستوزرته» دخل مسجدا يوم الجمعة ونطق بالشهادتين ، ثم خرج إلى المغرب حيث عاون الفاطميين على فتح مصر فجعله المعز أكبر مستشاريه وعينه أمينا على بيت المال (النجوم الزاهرة ١٥٨/٤) . ولكن ليس معنى هذا أنه هو القاعدة ، بل هو فى الحقيقة الشذوذ الذى يثبت القاعدة .

(٣) مثل ما حدث فى مصر وعرف باسم «قضية القاضى العمرى» . لقد أخذ هذا القاضى رشوة يقال إنها بلغت ستة آلاف دينار من بعض الحرس الأقباط ليعطيهم حكما بانتسابهم إلى القبيلة العربية =

شخص الإسلام تحت حكم عربى فإنه سيحاول أن يحاكى المسلمين فى كل تصرفاتهم ... سيذهب إلى المسجد ، وسيقرأ القرآن ، وسيصلى باللغة العربية . وباختصار سيعيش عيشة إسلامية كاملة .

وعامل الإسلام من الناحية اللغوية يعتبر ذا أهمية قصوى . وقد كان من الواضح جدا ارتباط تقدم اللغة العربية وانتشارها بتقدم الإسلام وانتشاره فى كل الأقطار المفتوحة على السواء . كذلك كان من الواضح أن الأماكن النائية أو التى لم ينتشر فيها الإسلام بسرعة ظلت اللغة القبطية فيها حية لمدة أطول من غيرها . وقد كان اكتساب الأقباط الذين أسلموا للغة العربية أسرع من اكتساب أولئك الذين لم يسلموا لها . ولهذا فنحن نتفق مع المستشرق الشهير دى لاسى أوليرى الذى علق أهمية كبيرة على هذا العامل بقوله «كان انتشار الإسلام بلا شك عاملا من عوامل إحلال اللغة العربية محل القبطية»[١] .

وقد حاول بعض الكتاب الذى عالجوا انتشار الإسلام فى مصر أن يصلوا إلى نتيجة معينة هى أن الإسلام قد انتشر فى مصر بالقوة . واعتمد هؤلاء فيما اعتمدوا - ومعظمهم من المستشرقين - على كتاب عنوانه «سير الآباء البطاركة» بقلم سويرس بن المقفع ، وهو مسيحى يعقوبى شغل منصب أسقف فى كنيسة

= حوتكة . وقد حدث هذا فى الأعوام الأخيرة من القرن الثانى الهجرى ، وأشار إليه المؤرخون والشعراء ، ومما قيل من شعر فى هذه الحادثة :

ومن أعجب الأشياء أن عصابة
من القبط فينا أصبحوا قد تعرّبوا
وقالوا أبونا حوتك وأبوهم
من القبط علج حبله متذبذب

(١) انظر : Notes on the Coptic language ص ٢٤٤ مقال بمجلة Orientalia عام ١٩٣٤ .

أشمونين نحو عام ٩٨٥ م . وهذا الكتاب – فى الحقيقة – ملىء بالوقائع المزورة والأكاذيب الفاضحة ، ولذا طعن فى صحته كثير من العلماء فى الشرق والغرب . وممن تشكك فى كتابات هذا الرجل ، ورأى ضرورة التثبت منها Nabia Abbot مؤلفة كتاب : The Kurrah Papyri وتنبهت هذه الكاتبة كذلك إلى حقيقة هامة بالنسبة لما كتب عن الأمويين إذ قالت مامعناه : إن معظم المراجع التى تمدنا بمعلومات عن الأمويين ونظام حكمهم كتبها أناس أعداء لهم مثل العباسيين والمسيحيين من أمثال سويرس بن المقفع[١] . كذلك حذر Bell فى مقاله The Administration of Egypt من الثقة الكبيرة فى المصادر القبطية حيث إن التعصب الدينى قد لعب دورا كبيرا فيها . وذكر لنا مثالا من الأخطاء التى وقعت فيها المراجع القبطية وكشفت عنه أوراق البردى[٢] .

ويقول جاك تاجر : «على عكس ما ذكره المؤرخون الأقباط تؤكد أوراق البردى التى يرجع عهدها إلى الفتح الإسلامى والتى اكتشفت حديثا حسن معاملة العرب ومسلكهم المشرف حيال أهل الذمة»[٣] .

إننا لانذكر أنه وقعت هناك فى تلك الفترة السحيقة بعض مصادمات بين المسلمين والأقباط ، ولكننا بسهولة نستطيع أن نردها إلى أسبابها الحقيقية . فبعض هذه المصادمات تم على أيدى المتطرفين من كلا الجانبين ، أو على أيدى العوام الذين تغلب عليهم حدة العاطفة دائما . وحتى فى هذه المصادمات التى وقعت بين الحكام والأقباط فإننا نجد التفسير بسهولة ويسر . لقد كانت هذه

---

(١) انظر ص ٥٧ .

(٢) انظر ص ٢٨٤ .

(٣) أقباط ومسلمون ص ٦١ .

المصادمات إما رد فعل لإثارات قام بها الأقباط - كما سنوضح فيما بعد - وإما عمليات اضطهاد وقتية قام بها بعض الحكام الظالمين [١] . وإما نتيجة للصراع الداخلى بين الأقباط وخاصة بين أبناء الطوائف المختلفة الذى سبب للحكومة متاعب جمة . ومن أمثلة ذلك الصراع ما ذكره يحيي بن سعيد الأنطاكى [٢] فى قوله : انقسم أهل مصر قسمين ، وكذلك أهل تنيس وتحزبوا حزبين ، وصار حزب من الكهنة والعلمانيين مع البطريرك وحزب منهم عليه . وكان كل فريق منهم يصلون فى كنيسة مفردة حتى كان الأب لايكلم ابنه ولا الامرأة تخاطب بعلها . ويستعين كل فريق منهم على الآخر بالسلطان . وخرج جماعة من النصارى ... من أهل تنيس إلى الإخشيد ساعين به رافعين إليه . ثم ذكر أنه عقب هذه الوشاية أرسل الإخشيد من نهب إحدى الكنائس . كذلك صرح «ترتون» فى كتابه : «أهل الذمة فى الإسلام» بأن كثيرا من الظلم الذى لحق الأقباط مصدره أنفسهم ، ومرده الغيرة الدينية بين أتباع الدين الواحد . وقد أتبع ذلك بنماذج كثيرة للصراع بين الطوائف المسيحية وإيقاع كل منها بالآخر . وذكر سويرس بن المقفع أن شماسا اسمه بنيامين كان يتولى الدس للنصارى عند الأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان ويطلعه على أسرارهم . وذكر فى مكان آخر أنه فى خلافة المعتصم بن هارون الرشيد حصلت وقيعة بين رؤساء النصارى ، ودسوا بعضهم لبعض ، فأمر والى مصر على بن يحيي الأرمنى بهدم البيع أو دفع ثلاثة آلاف دينار .

---

(١) من أمثلة ذلك ما ذكره ابن تغرى بردى من اشتهار سليمان بن على بن عبدالله بن العباس (١٦٩ هـ) بهدم كنائس مصر وأعمالها ، وما ذكره سويرس بن المقفع عن عبدالعزيز بن مروان أنه أمر بكسر جميع الصلبان التى فى مصر .

(٢) انظر تاريخ يحيي بن سعيد ص ٧١٥ - ٧١٦ المنشور فى :

Patrologia Orientalis, 1929 - 1932

والشيء الذى نحب أن نبرزه هنا ونجعله واضحا هو أن الأقباط قد تمتعوا فى ظل الحكم الإسلامى بحرية دينية لم يجدوها من قبل ، وأنها باشروا - سواء تحت الأمويين أو العباسيين - عباداتهم بحرية تامة . وكل ما كان يحرص عليه الحكام فى ذلك الوقت هو أن تترجم لهم دروسهم القبطية وصلواتهم ليتأكدوا أنها لاتحمل أى هجوم أو إهانة للإسلام . وقد عرف ذلك بوجه خاص أيام الأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان الذى كلف أحد الشمامسة بترجمة الإنجيل إلى اللغة العربية، وكان يبحث عن كتب النصارى ويأمر بترجمتها له . وقد اعترف ترتون فى كتابه «أهل الذمة فى الإسلام» بأن المسلمين بمصر منذ البداية اتجهوا إلى عدم احتلال أى كنيسة ، وعدم التدخل فى شئون الأقباط ، وبأن عمرو بن العاص نفسه لم يمد يده إلى أى شيء من أملاك الكنائس . وذكر أن أول كنيسة بنيت بالفسطاط أيام المسلمين كانت فى ولاية مسلمة بن مخلد (٤٧ - ٦٨ هـ) وأنه لما أنشأ عبدالعزيز ابن مروان حلوان سمح بإقامة كنيسة هناك ، ثم بنيت أخرى ، وبنى ديران .

ومن الثابت تاريخيا أن محمد بن طغج الإخشيدى - على عكس ما أشيع عنه - كان يحسن معاملة المسيحيين ، وكان يشارك فى أعيادهم ويحضر احتفالاتهم الدينية . وقد ذكر المسعودى وصفا لأحد هذه الاحتفالات فقال : «وقد حضرت سنة ٣٣٠ ليلة الغطاس بمصر والإخشيد محمد بن طغج أمير مصر فى قصره المعروف بالمختار فى جزيرة الروضة ... وقد أمر فأسرج فى جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل إلى جانب ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع...» .

وضرب لنا سويرس بن المقفع أمثلة للاضطهاد الدينى الذى عاناه المصريون تحت حكم الرومان ، ومنها قوله عن شخص يدعى «أغاتون» : «وكان قسا فى الكنيسة ، وهو من أهل مريوط . كان فى زمن هرقل يتزيى بزى

العلمانيين فى مدينة الإسكندرية ، ويطوف فى الليل يثبت الأرثذكسيين المختفين ويقضى حوائجهم ... وإذا كان النهار حمل على كتفه قفة فيها آلات النجارين ، ويظهر أنه نجار حتى لايعترضوه المخالفون (كذا)» .

ويقـــول جـاك تاجـر : «ولا نغـالى إذا قـلنا إن توطـيد السـيادة العـربيـة مكان السـيادة البيزنطية فى مصر أدخل على نفوس مسيحيى الشرق بارقة من الأمل»[١] .

وقبل أن نترك هذا العامل نحب أن نشير إشارة خاطفة إلى أن كثيرا مما ألصقه المستشرقون بالإسلام من اتهامات فى هذا الخصوص مرجعه سوء قراءتهم أو التواء فهمهم للنصوص العربية وترجمتهم الخاطئة لمدلولها . وأكتفى هنا بأن أذكر اسم المستشرق الشهير B. Evetts محقق كتاب سويرس بن المقفع السابق الإشارة إليه . لقد قرأ عبارة ابن المقفع «فأحصى جميع الرهبان ... وجعل عليهم جزية» – قرأها : فأخصى وترجمها إلى «mutilated» ورتب على ذلك نتائج كثيرة [٢] .

وأما الفترة الزمنية التى ساد فيها الحكم العربى فقد كانت طويلة ومستمرة لدرجة مكنت للإسلام أن يرسخ ، وللغة العربية أن تسود . ولذلك لم يحدث فيما بعد أى محاولة للخروج عن الإسلام ، أو أى اتجاه لنبذ اللغة العربية . وكل الثورات المحلية التى قامت بمصر لأسباب داخلية (بخلاف الحركات التى قامت حول الخلافة فقد كان القائمون بأمرها من العرب فى الغالب) اشترك فيها العرب والأقباط ، وكانت تثور لأسباب بعيدة عن الدين مثل :

---

(١) أقباط ومسلمون ص ١٨ .

(٢) انظر ١/٥١ .

١- النزاع القبلى بين القبائل العربية أو بين قواد العرب بقصد الاستئثار بالسلطة.

٢- الاحتجاج على التعسف فى جمع الأموال والقسوة فى معاملة الأهالى . وهذه الثورات كان يقوم بها العرب أحيانا، والقبط أحيانا ، وهما معا فى أحيان أخرى .

فمن النوع الأول تلك الثورة التى أشعلها العرب ضد حسان بن عتاهية لأنه أسقط الفروض التى كان قد قررها سلفه فى ولايته ، وقطع رواتب الجند .

ومن النوع الثانى خروج الأقباط على الحر بن يوسف أمير مصر من قبل هشام بن عبدالملك ، وعلى حنظلة بن صفوان ، وعلى يزيد بن حاتم . وكانت آخر ثوراتهم سنة ٢١٦ أيام الخليفة المأمون وشملت الوجه البحرى كله ، ولم تخمد إلا بعد حضور المأمون نفسه .

ومن النوع الثالث ثورة الجميع من عرب وقبط على عسف موسى بن مصعب فى استخراج الخراج وزيادته على كل فدان ضعف ما كان عليه أولا . وكذلك انقضاض الوجه البحرى كله من عرب وأقباط على عيسى بن منصور لسوء سيرته .

وأما العامل الخامس ، وهو مدى اندماج أصحاب اللغة الوافدة بأفراد الشعب ، وكيفية معاملتهم لهم ، فمن الثابت تطبيق كثير من الحكام لمبدأ المساواة الإسلامى بين الناس ، كما أن من الثابت تمتع الأقباط بحريتهم فى ظل الإسلام بصورة لم تتح لهم من قبل .

هذا بالإضافة إلى أسباب أخرى مكنت لهذا الاندماج وقوته مثل :

١- عادة الارتباع ، وهو انتقال العرب كل ربيع حين يطيب المرعى ، وتضع الحوامل إلى القرى المصرية لإطلاق خيولهم ترعى وتسمن ، وانطلاق أصحابها للاصطياد وشرب اللبن وأكل الخراف . ويعد الارتباع هجرة داخلية تتجدد كل سنة . وكان لكل قبيلة مرتبع معين تتردد عليه كل عام ، وكان هذا الارتباع يتركز حول الفسطاط فى الجيزة ووسط الدلتا وشرقها [١] .

ولا شك أن الارتباع كان فرصة ذهبية بالنسبة للعرب يتعرفون من خلاله على البلاد ، ويختلطون بأهلها . وكان لهذا بالتالى أثر كبير فى امتزاج الفريقين امتزاجا أدى إلى انتشار العرب فى مصر وإلى تأثر المصريين بلغة العرب ودينهم ، خاصة وأن هذا الامتزاج كان يتم بصورة عفوية ، وبلا تعسف أو إكراه [٢] .

٢- تحركات القبائل العربية فى أرجاء مصر وخروجهم عن عاصمتها حيث خططهم وأميرهم وجيشهم إلى مدن مصر وقراها حيث القبط مدنيين وفلاحيين .

٣- توزيع الجيش العربى على الثغور والسواحل بنسبة النصف ، وبقاء النصف الآخر فى الفسطاط العاصمة . ولم تكن القوات المرابطة تتخذ لها معسكرات خاصة - كما فى الفسطاط - وإنما كانت تقيم طوال فترة الرباط فى مساكن الأهالى العادية [٣] .

---

(١) لابن عبدالحكم فى فتوح مصر فصل بعنوان «ذكر مرتبع الجند» تحدث فيه عن البلاد التى تعودت القبائل الخروج إليها فى الربيع .

(٢) انظر القبائل العربية لخورشيد ص ٤٨ ، ٢٣١ .

(٣) المرجع السابق ص ٤٩ ، ٥٠ .

٤- إحساس العرب بما بينهم وبين المصريين من صلة دموية وقرابة جنسية تتمثل في أمومة هاجر المصرية (التى أهداها صاحب مصر إلى إبراهيم النبى حين دخل مصر مع زوجته سارة) ، وفى خئولة المصريين لإبراهيم ابن النبى محمد صلى الله عليه وسلم من مارية القبطية[١] . هذا بالإضافة إلى امتثالهم لوصية النبى صلى الله عليه وسلم القائلة : «استوصوا بالقبط خيرا» .

فإذا نحن انتقلنا إلى العامل السادس ، نجد أن تفوق أى لغة وتمتعها بالهيبة يرجع إلى قيمتها الذاتية ، وفى حالة اللغة العربية نجد قيمتها عظيمة ، وتفوق إلى حد كبير القيمة الذاتية للغة القبطية فى ذلك الوقت . فهى من ناحية لغة الحكام ، ومن ناحية أخرى لغة النبى . وهى بالإضافة إلى ذلك لغة حضارة عظيمة وثقافة تفوق أختها القبطية . ويشير «فندريس» فى كتابه «اللغة» إلى التفوق الذاتى الذى تتمتع به بعض اللغات ، ومن بينها اللغة العربية ، بقوله : «والقدرة على الانتشار التى نشاهدها فى بعض اللغات الهندية الأوربية أو السامية - كاللغة العربية مثلا - ترجع بلا شك إلى أسباب معقدة ، ولكن القيمة الذاتية للغة لها فى ذلك نصيب» [٢] .

ويمكننا أن نقدر الفجوة بين اللغتين القبطية والعربية فى هذا الصدد إذا أخذنا فى الاعتبار الحقيقتين التاليتين :

أولا : أن اللغة العربية كانت قد انتشرت فى كثير من أنحاء العالم وتمثلت ثقافات وحضارات كثيرة مما أعطاها ميزة ضخمة وقيمة كبيرة . وبمرور الزمن

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢ ، ٣٣ .

(٢) اللغة ص ٣٥١ .

ازداد هذا العامل قوة ، فما أن جاءت العربية إلى معركتها الحاسمة مع القبطية حتى كانت قد أصبحت لغة ثقافة عالية .

ثانيا : أن اللغة القبطية فى فترة احتكاكها باللغة العربية كانت فى موقف ضعيف بشكل واضح . فقبل ذلك بمدة طويلة كانت اللغة القبطية قد وقعت فريسة للغة اليونانية التى أصبحت فيما بعد لغة الكتابة . وهذا يعنى أن الأعمال الكتابية الهامة كانت تكتب باليونانية لا القبطية ، ويعنى بالتالى إضعاف اللغة القبطية لدرجة عظيمة .

ويقال كذلك إن لغة الثقافة فى مصر لم تكن القبطية ، بل كانت السريانية التى كانت تستعمل بخاصة فى جامعة الإسكندرية العتيقة ، والتى صارت مألوفة للدارسين بعد هجرة بعض الأساتذة السوريين إلى مصر وعملهم على نشر ثقافتهم.

ويقال أيضا إن اللغة القبطية لم تكن وحدها لغة الحديث فى بعض أجزاء من مصر بما فيها الإسكندرية ، وإنها كانت فى صراع دائم مع اللغة اليونانية على ذلك [١] . بل أكثر من هذا يقال إن اللغة القبطية كانت لغة الحديث لعامة الشعب وغير المثقفين فقط ، وإن الطبقات الأرستقراطية كانت تفضل الحديث باللغة اليونانية [٢] .

كذلك من الثابت أن الأقباط فى ذلك الوقت لم يكونوا غيورين بدرجة كبيرة على لغتهم حتى إنهم تخلوا عن أحرفهم الهجائية فى القرن الرابع أو الخامس

---

(١) عبدالمسيح : الأساس المتين فى ضبط لغة المصريين ص ٩٠ .

(٢) انظر جاك تاجر : أقباط ومسلمون ص ٣٠٤ ، وانظر أيضا : بهى الدين زيان : حياة النثر فى مصر إلى القرن الرابع الهجرى ص ١٠١ - ١٠٢ ، وعبدالرزاق حميدة : الأدب العربى فى مصر ص ١٧ .

الميلادى واختاروا أبجدية جديدة استعير معظمها من الأحرف اليونانية وأضيف إليها سبعة رموز من الكتابة الديموتيقية لتعبر عن أصوات لا وجود لها فى اللغة اليونانية [١] .

ومن أجل هذا حين جاءت حركة الترجمة النشيطة من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية وبلغت قمتها ، لم يجد الباحثون شيئا ذا بال يستحق الترجمة من القبطية إلا ما ندر . ولا توجد إشارات إلى ترجمات من القبطية إلى العربية حتى نهاية القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) ، اللهم إلا ما يتعلق بالديانة المسيحية . وربما كانت الترجمة الوحيدة التى وصلنا نصها هى تلك التى قام بها سويرس بن المقفع وأصحابه فى القرن الرابع الهجرى ، والتى أطلقوا عليها اسم : «سير الآباء البطاركة» . وتأخذ دائرة المعارف الإسلامية (مادة قبط) برأى Casanova أن الترجمة العربية للأعمال القبطية لم تتم إلا فى أيام الفاطميين . وتذكر الدائرة أن الأدب القبطى لم يكن أدبا راقيا ، وأنه عاش فى شكل ترجمات معظمها من اليونانية ، مثل ترجمة العهد القديم والعهد الجديد وقصص حياة الأولياء والقديسين .

ويقول الدكتور محمد كامل حسين نقلا عن بتلر : «لايستطيع الأقباط أن يفخروا بشعراء مجيدين أو مؤرخين معروفين أو فلاسفة أو أحد من رجال العلم . فجل أدابهم دينية لقلة ماكان لديهم من بيان وعلم ، مما سبب إهمال لغتهم وعدم انتشارها فى العالم ، مع أنه لاتكاد توجد لغة أقدم من لغتهم» [٢] .

---

(١) عبدالمسيح : الأساس المتين ص ٥ - ٩ ، وانظر أيضا ص ٧٦ من A.C. Moorhouse : The Triumph of the Alphabet و ص ٤٧٠ من D. Diringer : The Alphabet

وأما درجة القرابة بين اللغتين فهناك رأى يضع العربية والقبطية فى مجموعة واحدة هى المجموعة الحامية السامية ، ويعتمد أصحابه فى ربطهم المجموعتين فى مجموعة واحدة على النقاط التالية :

أ- اللغات الحامية تختلف عن سائر لغات إفريقية .

ب- اللغات الحامية تبدو متشابهة بقدر كبير من اللغات السامية مما يسمح بالقول بوجود قرابة لغوية قوية بينهما .

جـ- ما نادى به عالم المصريات القدير Adolf Erman من أن ما يسمى بالجنس الحامى ما هو إلا سامى هاجر إلى إفريقية من جنوب الجزيرة العربية ، ثم اختلط بدماء إفريقية متنوعة .

ومن أصحاب هذه النظرية مارسيل كوهين الذى نادى بأن اللغات الحامية ليست وحدة تقف موقف التقابل من اللغات السامية ، بل إنهما يكوّنان أسرة أكبر هى المجموعة الحامية السامية (١) .

بل قد تجاوز الإحساس بوجود قرابة - تجاوز اللغتين ليشمل الشعبين كذلك، يقول جمال حمدان : «إن جزءا من تقبل المصريين للعرب الوافدين يرجع إلى إحساسهم وإدراكهم بأنهم بعض أقاربهم وأصولهم وليسوا بغرباء أجانب حقا كسابقيهم ... وهذا يفسر لماذا سادت العروبة كل العالم السامى والحامى خارج الجزيرة العربية بينما توقفت عند سفوح زاجروس الآرية ، وأقدام الأناضول التركية ، كما ارتدت عن الأندلس القوطية» ، ويقول : «عرب الجزيرة ومصريو النيل

---

(١) انظر : Semitic and Hamitic ص ١٠ ، ودائرة المعارف البريطانية مادة African Languages والشعوب والسلالات الإفريقية ص ٢٣٨ وغيرها .

يمثلون معا المجموعتين الأكثر تشابها وتداخلا ، والأشد تقاربا وقرابة بين كل الساميين والحاميين معا» [١] .

فإذا نحن أردنا أن نحلل هذه العوامل ، ونرتب تلك الأحداث ترتيبا تاريخيا ، مضيفين إليها الحالات التى تتعلق بمصر بوجه خاص ، وحاولنا -إلى جانب ذلك- أن نبرز نقط التحول فى تاريخ اللغة العربية فى مصر إبان تلك الفترة ، فإننا نقترح منهاجا ذا مراحل ثلاث ، تنتهى كل مرحلة بشىء من النصر ، وفى نهاية آخر مرحلة يتم النصر الكامل للغة العربية ... هذه المراحل من الممكن أن تحدد على الوجه الآتى :

١- مرحلة المناوشة

٢- مرحلة التقدم .

٣- مرحلة النصر .

وإليكم تفصيل ذلك .

---

(١) شخصية مصر ٢٩٧/٢ . وقد لاحظ المؤلف كذلك أنه كان هناك ثلاث هجرات رئيسية إلى مصر سبقت اثنتان منهما العرب ، وهما الهكسوس واليهود ، ولاحظ أن الهجرات الثلاث كانت من عناصر سامية وأنها كانت آسيوية دخلت عن طريق سيناء (٢٩٢/٢) .

الفصل الثانى

المرحلة الأولى من الصراع

مرحلة المناوشة

تحدد هذه المرحلة بفترة ما بين الفتح الإسلامى (سنة ٢٠ هـ) ونهاية القرن الأول الهجرى (٧١٨ م) . وفيها وجد تبادل بين اللغتين العربية والقبطية وتأثير من كلا الجانبين على الآخر . وعلى الرغم من تأييد اللغة العربية بالعرب الفاتحين ، فقد كان ميزان القوى متعادلا لمعظم الوقت ولم تتمكن أى من اللغتين من إحراز نصر يذكر على الأخرى . وكانت الأسباب التى أدت إلى هذه النتيجة ما يأتى :

١- حسن معاملة العرب للمصريين . فعلى عكس ما ذكره المؤرخون الأقباط تؤكد أوراق البردى - التى يرجع عهدها إلى الفتح الإسلامى والتى كشفت حديثا - حسن معاملة العرب للأقباط ومسلكهم المشرف حيال أهل الذمة . ولدينا وثيقتان بهذا كشفهما البروفسر جروهمان يرجع تاريخهما إلى عام ٢٢ هـ = ٦٤٢ م . وإحدى الوثيقتين مكتوبة باللغة اليونانية وقد كتبها الشماس يوحنا مسجل العقود وألحق بها نص آخر باللغة العربية . ويقول النص العربى : «بسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما أخذه عبدالله بن جابر وزملاؤه المحاربون من النعاج للذبح فى هيراكليوبولس . لقد أخذنا من أحد وكلاء تيودوراكس النجل الثانى لآباقيرس ومن نائب خريستوفورس أكبر أنجال آباقيرس خمسين نعجة للذبح ، وخمس عشرة نعجة أخرى . وقد أعطاها لإطعام رجال

مراكبه وفرسانه وقوات مشاته .... تحرر فى شهر جمادى الأولى سنة ٢٢ وكتبه ابن حديد» ، وجاء فى ظهر الورقة ما نصه : «شهادة بتسليم النعاج للمحاربين ولغيرهم ممن قدموا البلاد وهذا خصما (كذا) عن جزية التوقيت الأول» . وقد علق جروهمان على النصين بقوله : «إن هذه المعاملة إزاء شعب مغلوب قلما نراها من شعب منتصر» . وقد كتب ميخائيل السورى بطريرك اليعقوبيين فى أنطاكية يقول : «إن رب الانتقام استقدم من المناطق الجنوبية أبناء إسماعيل لينقذنا بواسطتهم من أيدى اليونانيين ... وقد أصابنا خير ليس بالقليل بتحررنا من قسوة الرومان وشرورهم ، ومن غضبهم وحفيظتهم علينا . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى سادت الطمأنينة بيننا [١]» . ووصف الأسقف المؤرخ سويرس بن المقفع شعورهم بقوله : «كانت الشعوب فرحين مثل العجول الصغار إذا حل رباطهم وأطلقوا على ألبان أمهاتهم» . ويعلق الدكتور جاك تاجر على وصف سويرس بن المقفع بقوله : «وسويرس على حق فى وصفه لأن الأقباط لم يعاملوا هذه المعاملة اللينة من مدة طويلة . أضف إلى ذلك أن العرب أثناء ولاية عمرو لم يحاولوا أن يضغطوا على الأقباط ليعتنقوا الإسلام ولم يضطهدوهم [٢] » .

٢- استمرار استعمال اللغة اليونانية (أو القبطية) بوصفها لغة رسمية حتى عام ٨٧ هـ = ٧٠٦ م عندما أصدر والى مصر إذ ذاك وهو عبدالله بن عبدالملك ابن مروان أوامره بإحلال العربية محلها [٣] . وفى التوعزل رئيس الديوان

---

(١) جاك تاجر : أقباط ومسلمون ص ١٨ ، وانظر أيضا ص ٦١ .

(٢) المرجع نفسه ص ٧٣ و انظر أمثلة أخرى فى (المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول) لشكرى فيصل ص ١١٩ وما بعدها .

(٣) المقريزى : الخطط ٩٨/١ ، والولاة للكندى ص ٥٨ - ٥٩ .

القبطى وكان اسمه أثناسيوس وحل محله ابن يربوع الفزارى الحمصى ، وتشير المصادر العربية إلى أن اللغة الرسمية إذ ذاك كانت القبطية وحدها ، فى حين أن الباحثين الأوربيين يرون أنها كانت اليونانية فقط . والذى يبدو لى أن كلتا اللغتين كانت مستعملة فى الكتابة فى ذلك الوقت . اليونانية بوصفها اللغة الرسمية فى الدواوين والمصالح الحكومية ، والقبطية بوصفها لغة العامة وكانت تكتب بها عقودهم وخطاباتهم ووثائقهم . ويتضح من بعض الوثائق المكتوبة بين سنتى ٥٦ هـ = ٦٧٥ م و ١٥٩ هـ = ٧٧٥ م أن كلتا اللغتين كانت تستعمل جنبا إلى جنب ، وأحيانا مع اللغة العربية . والنسبة الكبرى فى مجموعة من هذه الوثائق كانت باللغة القبطية (٨٥٪ بالقبطية و ٩٪ باليونانية و ٦٪ بالعربية [١]) ولكن هناك وثائق أخرى كتبت باليونانية فقط . ولم يكن من الممكن – بالطبع – أن يتم تعريب الدواوين بين يوم وليلة ، ولهذا فنحن نقترح السنوات العشر الأولى من القرن الثانى الهجرى أو نحوها حينما أصبحت اللغة العربية لغة المصالح الحكومية إما بالكلية ، أو كلغة أولى فى الوثائق ذات اللغتين . ومع ذلك فقد عثر على وثيقة من وثائق البردى كتبت باللغتين اليونانية والعربية ويرجع تاريخها إلى عام ٢٢ هـ [٢] ، أن نحو ٦٥ عاما قبل المحاولة الرسمية لتعريب الدواوين فى مصر . ومن تلك الوثيقة يمكننا أن نقول إن استعمال اللغة العربية فى الوثائق الرسمية (ولكن كلغة ثانية) كان قد بدأ إن لم يكن مع الفتح الإسلامى فبعده بقليل . وأول وثيقة كتبت كاملة باللغة العربية يرجع تاريخها إلى عام ٩٠هـ = ٧٠٩ م .

---

(١) انظر ص ٨ من : P.E. Kahle : Bala'izah (لندن ١٩٤٥) .

(٢) سبق نص الوثيقة .

٣- أما العامل الثالث من عوامل التعادل بين اللغتين العربية والقبطية خلال القرن الأول الهجرى فيرجع إلى وضع الأقباط الوظيفى فى الدولة . فقد حل الأقباط فى إدارة البلاد محل الروم الذين غادروا مصر ، والذين كانوا يشغلون كثيرا من الأعمال فيها ، كما ظلوا فى وظائفهم العامة كما كانوا قبل الفتح سواء بسواء ، فكان منهم حكام المحافظات ورؤساء الدواوين وصغار الموظفين . ومن هؤلاء عامل يدعى ميناس كان هرقل قد ولاه أعمال المنطقة الشمالية من البلاد واستبقاه المسلمون فى عمله . وهناك آخر اسمه شنودة وكلت إليه حكومة الريف ، وثالث تولى حكومة الفيوم [١] ... وهكذا ، وقد كان فى الحكومة المركزية بالفسطاط أو حلوان كاتبان قبطيان لإدارة مصر العليا ومصر السفلى . وأشار سويرس بن المقفع إلى الكاتبين الأرثوذكسيين أثناسيوس الرهاوى وإسحاق فى عهد عبدالعزيز بن مروان [٢] . وقد شغل أولهما مناصب حكومية كثيرة وتدرج إلى أن بلغ مرتبة الرياسة فى دواوين الإسكندرية وأصبحا فى ديوانه عشرون كاتبا ثم زادوا إلى أربعة وأربعين . وفى نهاية ولاية عبدالعزيز بن مروان كان والى الصعيد قبطيا اسمه بطرس ، وكان حاكم مريوط قبطيا اسمه تاوفانس [٣] . ولم يقتصر الأقباط على شغلهم معظم الوظائف الإدارية فحسب ، بل كان لهم الأمر والنهى فى كثير من الأحيان ، وبقى نظام الضرائب والحسابات فى أيديهم مما أتاح لهم الفرصة لتحقيق مكاسب كبيرة [٤] .

---

(١) ترتون . أهل الذمة فى الإسلام [illegible] .

(٢) انظر سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ١٩٠ .

(٣) المرجع السابق ص ١٩٠ .

(٤) جاك تاجر ص ١٠٦ .

وقد أظهر الخلفاء مرارا وتكرارا منذ عهد عمر بن الخطاب رغبتهم فى إبعاد الأقباط من الوظائف الإدارية ، ولكن دراية عمرو السياسية تغلبت أول الأمر على تشدد عمر بن الخطاب الدينى وجعلته يستبقيهم فى وظائفهم . وظل الحال كذلك إلى أن وجه عمر بن عبدالعزيز رسائله إلى حكام الأقاليم يذكرهم فيها بواجبهم ويحذرهم من استخدام الذميين أولياء ويهدد بالعزل من يترك فى ولايته عاملا يدين بغير الإسلام . ومما جاء فى رسالته فى هذا الصدد : «فلا تولين أمور المسلمين أحدا من أهل الذمة فتبسط أيديهم وألسنتهم وتذل المسلمين بعد أن أعزهم الله» . وتنفيذا لتعليمات الخليفة أصدر حاكم مصر إذ ذاك ، وهو أيوب بن شرحبيل (ولايته من عام ٩٩ هـ = ٧١٧ م إلى ١٠١ هـ = ٧١٩م) ، أوامره بإحلال المسلمين أو العرب محل الأقباط . ونتيجة لذلك «نزعت موازيت القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليها [١] . ولكن يبدو - على أى حال - أن هذه الحركة لم تكن شاملة فى أى عصر من عصور التاريخ بدليل أننا نجد من بين أسماء محصلى الضرائب فى القرن الثالث الهجرى أسماء قبطية من مثل مينا بن شنودة وسويرس بن زكريا ويوحنا بن ميناء . ومن الثابت كذلك أن رؤساء المالية ظلوا أقباطا طوال العصر الأموى .

٤- كان عدد العرب قليلا طوال هذا القرن إذا قيس بعدد السكان الأصليين . فقد كان عدد قوات الجيش العربى الفاتح بأمداده المتعددة يتراوح بين اثنى عشر ألفا وستة عشر ألفا يعيشون على العطاء الذى تصرفه الحكومة لهم . وبعد

---

(١) كان القطر المصرى مقسما إلى أجزاء كل منها يسمى «كورة» ، وعلى رأسها كان صاحب الكورة. ومساعده كان يحمل اسما يونانيا هو «جسطل» أو «مازوت» ويذكر الدكتور مراد كامل أن كلمة «مازوت» لاتينية أو يونانية الأصل وأن معناها «قاض» (ص ٧١) .

الفتح نظمت لهم خطط فى الفساط ونزلت كل قبيلة خطة ، أى جهة معينة أو قسما من أقسامها ، وعرف كل قسم باسم القبيلة أو الجماعة التى نزلت فيه. ولم يخرج عن الفسطاط من جيوش الفتح إلا عدد قليل من القبائل مثل همدان التى نزلت فى الجيزة ، وعدد آخر نزل بالإسكندرية . وفى خلافة معاوية كان بالفسطاط أربعون ألف عربى ، وفى الإسكندرية اثنا عشر ألفا زيدت إلى سبعة وعشرين ألفا بعد شكوى قائدها من قلة العدد [١] . وفى زمان مروان بن الحكم (٦٤ - ٦٥ هـ) بلغ جند مصر من العرب أكثر من ثمانين ألفا (تضاعفوا سبع مرات خلال نصف قرن) [٢] . وقد أدى هذا التزايد إلى إعادة تدوين الدواوين مرتين (بعد تدوين عمرو بن العاص) خلال القرن الأول وذلك فى عهد عبدالعزيز بن مروان (توفى ٨٦ هـ) وقرة بن شريك (٩٥ هـ) [٣] . ومع أننا نعترف بأن أرقام هؤلاء الجنود لاتدل على عدد العرب الحقيقيين فى مصر لأن المصادر التاريخية ربما أغفلت ذكر جماعات عربية استوطنت مصر أيام الفتح غير هؤلاء الجنود ، وذلك مثل قبيلة «بلى» التى نقلت بعض بطونها من الشام إلى مصر فى أيام عمر بن الخطاب وأقامت بالصعيد [٤] ، فإنه من الواضح أنه حتى مع مضاعفة التقدير فإن عدد العرب لن يبلغ فى أى فترة من فترات هذا القرن عشر معشار عدد السكان الأصليين الذين يزيدون فى أقل تقدير على سبعة ملايين نسمة [٥] .

---

(١) القبائل العربية لخورشيد ص ٤٩ .

(٢ ، ٣) السابق ص ٥٣ ، ٥٥ .

(٤) انظر البيان والإعراب ص ٩٧ .

(٥) تختلف المراجع فى تقدير عدد المصريين الذين كانوا بمصر أيام الفتح . وليس هناك أى دليل على ترجيح أحد الآراء على الآخر . وقد قدرهم جرجس فيلوثاوس بثلاثين مليونا (اللغة القبطية سنة =

٥- وبالإضافة إلى القلة العددية كانت هناك أوامر مشددة على الجنود ألا يستكينوا إلى الراحة ، وأن يظلوا فى وضع استعداد دائم ، أو على حد تعبير عمرو بن العاص : «واعلموا أنكم فى رباط إلى يوم القيامة لكثرة الأعداء حولكم، وتشوف قلوبهم إليكم وإلى دياركم معدن الزرع والمال والخير الواسع[1] . كذلك أمروا ألا ينزلوا الريف إلا وقت الربيع لينالوا من «خيره ولبنه وخرافه وصيده» وليسمنوا خيولهم ويطعموها . ومن تحذيرات عمرو فى هذا الشأن : «ولا أعلمن أحدا قد أسمن نفسه وأهزل فرسه . واعلموا أنى معترض الخيل كاعتراض الرجال فمن أهزل فرسه فى غير علة حططت من فريضته قدر ذلك» . وقد روى ابن عبدالحكم عن عمر بن الخطاب أنه أمر مناديه أن يخرج إلى أمراء الأجناد ويسألهم أن يخبروا الرعية أن عطاءهم قائم وأن رزق عيالهم سائل فلا يزرعون . وروى ابن وهب أن شريك بن سمى الغطفى أتى عمرو بن العاص فقال : إنكم لاتعطوننا ما يكفينا ، أفتأذن لى فى الزرع ؟ قال عمرو : ما أقدر على ذلك . فزرع شريك من غير أمر عمرو

= ١٩١٦ ص ١٢) وقدرتهم دائرة المعارف الإسلامية بحوالى أربعة وعشرين مليونا (ص ٩٩٧ مادة Kibt) . وإذا أردنا أن نقدر عددهم بناء على مقدار الجزية الذى جمعه عمرو بن العاص صادفتنا صعوبة أخرى هى أن المراجع تختلف فى هذا المقدار على الوجه الآتى :

(أ) ذكر البلاذرى فى فتوح البلدان أن خراج مصر زمن الفتح كان ألفى ألف دينار أى أن من وجبت عليهم الجزية (وهم من عدا الأطفال والنساء والعجائز) كان عددهم مليون نسمة ، بواقع دينارين للفرد الواحد .

(ب) أما ابن عبدالحكم فى فتوح مصر فقد قدر عدد من وجبت عليهم الجزية بستة ملايين نسمة وكذلك فعل السيوطى فى حسن المحاضرة .

(جـ) ذكر المقريزى فى الخطط (١٣٦/١ ط لبنان) أن عدد من دفعوا الجزية كانوا ثمانية ملايين شخص .

(١) انظر حسن المحاضرة (ط الشرقية) ٦٧/١ .

فكتب عمرو إلى عمر يخبره بذلك فكتب إليه أن ابعث إلى به فبعث به إليه فقال له عمر : «لأجعلنك نكالا لمن خلفك» . وحيث كان معظم العرب يعملون كأفراد فى القوات المسلحة وينظر إليهم على أنهم غزاة فاتحون فإننا لانتوقع قيام علاقات طيبة – لبعض الوقت – بينهم وبين الأقباط . أما العرب الذين لم يفدوا بوصفهم جندا عاملين فكانوا قلة ، وتفرقوا فى البلاد ، فنزل بعض من «لخم» و «جذام» بالحوف الشرقى [١] ، وبعض من «بلى» بسوهاج واستقرت جهينة فى الصعيد ، وبعضهم نزح إلى الصحراء . ومن أشهر المناطق التى سكنتها القبائل الأولى كذلك الفيوم وبهنسا وبوصير وسخا وإتريب ومنوف وسمنود وطحا .

٦- فى النصف الثانى من هذا القرن فرضت ضريبة على الرهبان لأول مرة ، وقد فرضها عبدالعزيز بن مروان فى عام ٦٥ هـ = ٦٨٥ م وقدرها دينار عن كل فرد بحجة أنه ليس من العدل أن تدفع الطبقات الفقيرة الضرائب ويعفى منها الرهبان والمطارنة والبطاركة الذين يملكون ثروات ضخمة . واستنادا إلى ما ذكره المؤرخ القبطى سويرس بن المقفع ، فرض الأصبغ بن عبدالعزيز بن مروان (توفى عام ٨٦ هـ = ٧٠٥ م) – الذى كان نائبا عن والده عبدالعزيز ابن مروان فى حكم مصر خلال فترة ولايته – ضرائب على الرهبان الأقباط وأراضيهم ، وقبل عهده لم تكن هناك أى ضرائب مفروضة عليهم [٢] .

---

(١) يشمل الحوف الشرقى القرى الواقعة على الجانب الشرقى من الوجه البحرى وبلبيس وكان يشمل كل البلاد التابعة الآن لمحافظتى القليوبية والشرقية ، وما يقع إلى شرقى مركز السنبلاوين وأجا وبلاد مركز ميت غمر بمحافظة الدقلهية .

(٢) يبدو أن الضريبة الأولى التى فرضها عبدالعزيز بن مروان على الرهبان هى هذه الضريبة التى فرضها الأصبغ . أما إذا اختلفت فلعل الأولى كانت تقابل ما يسمى بالجزية أو ضريبة الرءوس ، =

كذلك قال سويرس بن المقفع إن الأصبغ أمر حكام المحافظات وموظفيها في كثير من مدن مصر العليا والسفلى أن يعتنقوا الإسلام أو يغادروا وظائفهم . وقد كان من نتائج هذه السياسة ذات الشقين أن دخل كثيرون دين الإسلام ، منهم «بيتر» حاكم الصعيد ، وأخوه «تيودور» حاكم مريوط وعدد لايحصى من القسس وعامة الشعب .

ومن الطبيعى ألا يظهر أثر هذا العامل فى خلال تلك الفترة وأن تظهر نتائجه فى المرحة التالية .

وباستثناء هذا المثال الواحد لم يكن هناك ضغط مباشر على الأقباط ليكونوا مسليمن ، وإنما كان عليه أن يدفعوا نوعا أو أنواعا معينة من الضرائب [١] .

= أما الثانية فكانت تقابل ما يسمى بالخراج أو ضريبة الأرض . ويبقى قول سويرس «وقبل عهده لم تكن هناك أى ضرائب مفروضة عليهم» فى حاجة إلى نظر .

(١) كان على الأقباط أن يدفعوا نوعين من الضرائب :

(أ) الجزية أو ما يسمى بضريبة الروس . وتذكر المصادر العربية أن مقدارها ديناران فى العام على كل شخص باستثناء النساء والأطفال والشيوخ . ولكن أوراق البردى تثبت أنها كانت تقدر على حسب ثروة الشخص وليست ثابتة . ويبدو أن ما ذكره المؤرخون العرب عن هذا المقدار ما هو إلا متوسط ما يؤديه دافعو الضرائب ليس إلا . ومعنى هذا أن الجزية المفروضة على كل قرية كانت تؤخذ بضرب عدد الروس فى اثنين ، ثم يقسم الناتج على أبناء القرية بحسب ثروة كل فرد . وقد ثبت من قوائم الضرائب المكتوبة باللغة اليونانية والتى يرجع تاريخها إلى القرن الأول للهجرة أنه كانت تحصل أحيانا مبالغ أقل من دينارين بل أقل من دينار وقد يصل الرقم المحصل إلى أربعة دنانير إذا كان الشخص من ذوى الثراء .

(ب) ضريبة الأرض ، وكان تختلف من وقت إلى وقت تبعا لدرجة الفيضان السنوى من ناحية ، ولسياسة كل حاكم من ناحية أخرى (انظر النجوم الزاهرة ٢٤/١، وفتح العرب لمصر لبتلر ص ٣٩٢ و ٣٩٥ ، والأعلاق النفيسة لابن رسته ص ١١٨ و ١١٩ (ليدن ١٨٩١) ، ودائرة المعارف الإسلامية مادة Egypt ص ١٦ ، و Lane Poole فى A History of Egypt ص ١٩ و ٢٠ و ٤٣ ، وابن حوقل : المسالك والممالك ص ٨٨ و ٨٩ و ١٠٧ =

٧- ويجب أن نذكر اسم عمر بن عبدالعزيز مرة أخرى فى هذه المرحلة لأنه كان أول من ألغى ضريبة الرءوس على الأقباط إذا ما اعتنقوا الإسلام ورفض فى ذلك أن يأخذ بمشورة من نصحوه باستمرار تحصيل الجزية نظرا لازدياد من يعتنقون الإسلام . وقد رد عليهم بقولته الشهيرة : «إن الله إنما بعث محمدا صلى الله عيه وسلم هاديا ولم يبعثه جابيا . ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الإسلام على يديه» . وقد أدت هذه السياسة إلى إغراء بعض الأقباط بالدخول فى الإسلام . ولكن مرة ثانية ، لم يظهر أثر هذا العامل خلال هذه المرحلة .

٨- أن حركات الدخول فى الإسلام سارت بطيئة فى أنحاء البلاد خلال هذا القرن. ولم تحدث موجات ذات بال ماعدا تلك التى سبقت الإشارة إليها ، وماعدا موجات الدخول فى الإسلام التى قام بها العرب الجاهليون المقيمون بمصر . وقد أشار المؤرخون بالنسبة للقسم الأخير إلى أن عددا كبيرا من هؤلاء العرب لم يترددوا فى تأييد إخوانهم الفاتحين ، وفى تعويض عمرو بن العاص عن خسائره خلال الفترة الأولى من الصراع .

وكانت النتيجة الحتمية لتلك العوامل المتضاربة أن حققت اللغة العربية بعض النصر على حساب اللغة القبطية التى فقدت بدورها شيئا من قوتها فى صراعها من أجل الحياة . وإن بقاء اللغتين جنبا إلى جنب ، وفشل أيهما فى القضاء على الأخرى ، لايعنى أنهما كانتا فى حالة ركود ، فمن المتوقع أن يكون قد حدث بينهما نوع من التأثير المتبادل ، ومن غير المشكوك فيه أن تكون كل لغة قد تركت شيئا من معالمها على الأخرى .

= و ١٠٨ ، والمقريزى : إغاثة الأمة ١٣ - ١٨ ، والخطط للمقريزى ٩٨/١ و ٩٩ وشكرى فيصل ص ١٢٤ .

الفصل الثالث

المرحلة الثانية من الصراع

مرحلة التقدم

أما المرحلة الثانية فمن الممكن أن تحدد نهايتها بعام ٢١٥ هـ = ٨٣٠ م . والعلامة المميزة لهذه المرحلة أنه بنهايتها كان ميزان القوى قد اختل لصالح اللغة العربية التى حققت نجاحا كبيرا . أما الأسباب التى أدت إلى هذه النتيجة فهى كما يلى :

١- ازدياد حركة التعريب للدولة ، وإحلال العرب أو المسلمين محل الأقباط . وقد أدت هذه الحركة بالأقباط إلى أن يهملوا تدريجيا دراسة اللغتين اليونانية والقبطية ، وأن يسرعوا فى تعلم اللغة العربية لتفتح أمامهم فرص العمل ، أو ليحتفظوا بما فى أيديهم من وظائف . ولم تؤد حركة التعريب إلى أى تذمر أو احتجاج من الأقباط ، إذ كان التعريب انتقالا من لغة أجنبية هى اليونانية إلى لغة أجنبية أخرى هى العربية . وكما تعلم الأقباط اليونانية واستعملوها فى الدواوين على الرغم من أنها ليست لغتهم ، لماذا لايتعلمون العربية ويستعملونها فى الدواوين بدلا منها وهى لغة المنتصرين [١] ، ولغة سوف تفتح أمامهم أبواب الرزق ؟

---

(١) انظر أقباط ومسلمون ص ٣٠١ .

وليس هذا فحسب ، فإن بعض الأقباط لم يقنع بتعلمه اللغة العربية ، وأراد أن يذهب خطوة أبعد فى التقرب من الحكام فاعتنق الإسلام ، ولم يكتف بعضهم بالإسلام فحاول أن ينتسب إلى إحدى القبائل العربية علّ ذلك يشفع له عند الناس ويجعله ينعم بالمساواة بينهم [١] .

٢- إحكام الحصار على الأقباط لمنعهم من الفرار من دفع الجزية بأى وسيلة من الوسائل عدا اختيار الإسلام ، ولإحباط مساعيهم فى التهرب من دفع التزاماتهم المالية . وقد لجأ الأقباط إلى حيل متعددة قوبلت بردود أفعال مناسبة :

(أ) فقد زاد عدد الأقباط الذين ادعوا حقهم فى الإعفاء من دفع الجزية بحجة ترهبهم أو انتسابهم إلى الكنيسة ، مما أدى بالوالى إلى فرض جزية مقدارها دينار على كل نسمة ، كما قام بإحصاء جميع الرهبان فى كل الكور وأمر ألا يرهَّب أحد بعدهم .

(ب) ولجأ بعضهم إلى تغيير محال إقامتهم بعد أن انتهت السلطات من تعداد السكان ، وأقاموا فى نواح أخرى لم تدرج أسماؤهم فى قوائم الضرائب فيها ، مما أدى بالوالى أن يصدر أوامره المشددة بعدم السماح لأحد بالسفر أو الانتقال من قرية إلى قرية بدون أن يكون حاملا لجواز سفر ، وتغريم من يضبط بدونه مبلغ خمسة دنانير . كذلك صدرت الأوامر بألا يسمح لقافلة بالانتقال من مكان إلى آخر مالم تكن حاملة لإذن كتابى وإلا تعرضت للمصادرة .

---

(١) انظر ما سبق عن ذلك فى الفصل الأول .

(جـ) كذلك لجأ بعض المزارعين إلى هجر أراضيهم وقراهم بحجة عدم استطاعتهم الوفاء بالتزاماتهم المالية [١] ، فاضطرت الحكومة إلى تتبع هؤلاء المهاجرين وردهم ، أو إلى تهجير بعض القبائل العربية وإحلالها محلهم كما سنتحدث فيما بعد .

(د) وقام بعضهم بثورات دموية قوبلت بشدة ، وأخمدت بقسوة ، ومن ذلك ثورات أعوام ١٠٧ و ١٢١ و ١٣٢ و ١٣٥ و ١٥٠ و ١٥٦ هجرية [٢] .

• ٣- تتابع هجرات القبائل العربية إلى مصر لأسباب مختلفة بعضها سياسى وبعضها دينى وبعضها اقتصادى . وقد حدث هذا بشكل مطرد خلال تلك الفترة ، وأحصى ماك ميكل ما أمكن التعرف عليه من القبائل التى وفدت إلى مصر فى الفترة ما بين سنة ١٣٣ هـ إلى ٢٤٢ هـ فوجدها تبلغ ثلاثا وثلاثين قبيلة متفرقة فى فروع مختلفة . ويمكن التمثيل لهذه الهجرات بما يأتى :

(أ) قبيلة لخم التى رحل بعضها مع الفاتحين إلى مصر ثم دخلت قبائل كثيرة منهم فى القرنين السابع والثامن ، وحطت رحالها فى جهات الإسكندرية،

---

(١) تلقى أوراق بردى «كوم أشقاو» شعاعا من النور على هذه الحركة التى كان محورها الزراع ، وكان الوالى يأمر بإعادتهم إلى قراهم الأصلية . فنراه يكتب إلى صاحب «أشقوه» أنه علم بوجود جالية فى أرضه ويطلب منه أن يردها إلى أرضها الأصلية . ونراه يرسل مندوبين للنظر فى حركة الهرب ، ويطلب من صاحب الكورة أن ييسر مهمتهم ، وأن يرسل معهم رجالا ثقات يعرفون الكتابة ليقوموا فى حضرتهم بكتابة أسماء الهاربين وألقابهم ، وليبينوا أيضا من أين هربوا وإلى أى جهة ذهبوا . (انظر : د. سيدة إسماعيل كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٢٢٨) .

(٢) ذكر المقريزى أن أولى ثورات القبط حدثت عام ١٠٧ هـ ، ولكن أوراق البردى تتحدث عن ثورة فى الصعيد أسبق من ذلك حدثت فى عام ٩٤ هـ = ٧١٢ م .

وقد كان منهم أمير حكم مصر عام ١٣٣ هـ ، ٧٥٠ م . وقد كان تعيين وال من قبيلة معينة من أكبر الفرص للمهاجرة فقد كان يرافقه مالا يقل عن عشرين ألف مقاتل من قبيلته .

(ب) قيس عيلان التى رحل بعض منها إلى مصر عام ١٠٩ هـ = ٧٢٧ م بأعداد كبيرة تصل إلى ثلاثة آلاف شخص فى رواية ، وخمسة آلاف فى رواية أخرى ، ونزلوا بالحوف الشرقى [١] ، وصرف لهم الوالى مرتبات من أموال الصدقة والعشور ، وأمرهم بالزرع وتربية الإبل والخيول . وكان يتحصل للرجل منهم فى الشهر نحو عشرة دنانير ، ولم يكن عليهم مؤنة فى علف إبلهم ولا خيولهم لجودة مرعاهم . وتضاعف عددهم فيما بعد بشكل ملحوظ ، فسرعان ما تسامع باقى أفراد القبيلة بخصب الأرض وكثرة خيراتها فهاجر عدد آخر يبلغ خمسمائة أسرة ، ثم بعد سنة أتى نحو خمسمائة أسرة أخرى وهكذا . ويقول الكندى عنهم إنهم «توالدوا وقدم عليهم من البادية من قدم» [٢] . وقد حقق تهجير هذه القبيلة أهدافا كثير أهمها :

(أ) الإقامة فى منطقة الحوف الشرقى التى قام أهلوها الأقباط بثورتهم الأولى عام ١٠٧ هـ حتى يكونوا عامل تعادل فى المنطقة .

---

(١) يرى المقريزى أن قليلا من أفراد قيس كانوا قد أتوا مصر قبل تهجير من هجروا فى عهد الوليد ابن رفاعة الفهمى . ويخالف ماك ميكل فى ذلك لأنه يرى أن ثلاثة من الحكام القيسيين حكموا مصر قبل الوليد بين سنتى ٩١ و ١٠٩ هـ ، منهم اثنان من فهم وواحد من عبس . ولا يمكن أن يحكموا من غير أن يكون قد صاحبهم عدد كبير من قبائلهم .

(٢) القبائل العربية لخورشيد ص ٥٣ .

(ب) محاولة عمل تعادل من نوع آخر يتم هذه المرة بين القبائل السبئية والعدنانية . فقبل هذه الهجرة لم يكن بأرض مصر من قيس إلا عدد قليل من فهم وعدوان .

(جـ) المساعدة على انتشار الإسلام ، إذ سكنت موقعا آهلا بالسكان الأقباط، على عكس ما حدث من قبل لمعظم القبائل العربية التى لم تختلط بسكان الريف والقرى إلا قليلا ، مما جعل انتشار الإسلام فى القرن الأول محدود الأثر .

(د) حلولها فى الزراعة محل المزارعين الذين تركوا أرضهم ، ورحلوا إلى أماكن أخرى ، فكان جزء من مهمتهم ملء الفراغ الذى تركه السكان الأصليون .

وهكذا كان تهجير هذه القبيلة بأعداد ضخمة - بالإضافة إلى موقع سكانها- عاملا كبيرا من العوامل التى أدت إلى سرعة إدماج العنصر العربى فى العنصر المصرى ، وأصبحنا نرى فى الوجهين البحرى والقبلى عربا تزوجوا من نساء قبطيات اعتنقن الإسلام ، كما أصبحنا نرى علاقات اجتماعية طيبة بين العرب وغيرهم . وهذا ولا شك أعان على انتشار الإسلام بشكل واسع وبسرعة ملحوظة .

٤- ازدياد عدد الداخلين فى الإسلام فرادى وجماعات نتيجة لأسباب كثيرة ، أهمها :

(أ) قوة الحركة الدينية ونشاط الدراسة الإسلامية والعربية فى مصر فى ذلك الوقت ، وامتلاء مصر منذ أواخر القرن الأول بعلماء الدين والقراء والمفسرين والمحدثين ، على نحو ما سنفصله فى الفصل الخامس من هذا الباب .

(ب) كان هناك حركة فردية بين المفكرين فى تقبل الإسلام . فقد استجاب له كثيرون من الذين كانوا يحسون أعمق القلق فى حياة المسيحية ويعانون أقسى الآلام حين يرون أمام أعينهم تطاحن فرقها وتنازع مذاهبها . وقد كتب بتلر فى شأن هذا اللون من الناس يقول : «وأما الحقيقة المرة فهى أن كثيرين من أهل الرأى والحصافة قد كرهوا المسيحية لما كان منها من عصيان لصاحبها ، إذ عصت ما أمر به المسيح من حب ورجاء فى الله ... ومنذ بدا ذلك لهؤلاء العقلاء لجئوا إلى الإسلام فاعتصموا بأمنه واستظلوا بوداعته وطمأنينته وبساطته[1] » .

(جـ) الإغراء المادى المتمثل فى الإعفاء من الجزية كما سبق أن أشرنا . وكان هذا الإغراء متمثلا بشكل أوضح فى المدن ، وبين أرباب الوظائف، وأصحاب المهن غير الزراعية ، لأن معنى إعفائه من الجزية إعفاؤه الكامل من دفع أى ضريبة للحكومة . أما إعفاء الفلاح من الجزية فلم يكن يعفيه من دفع ضريبة الأرض المعروفة باسم «الخراج» . فالخراج كان مربوطا بالأرض يتحمله صاحبها حتى لو أسلم أو باعها لمسلم . ولهذا يقول المستشرق دى ساسى : «لعل ذلك أحد الأسباب التى دعت

---

(١) انظر شكرى فيصل : المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول ص ١٥٣ .

إلى بقاء المسيحية فى الأقاليم مدة أطول منها فى المدن» . كذلك كان فقد الرهبان لامتيازاتهم المادية عاملا من عوامل ازدياد اعتناق الإسلام بينهم ، مما أدى إلى تناقص عدد الرهبان ، وهجر الأديرة شيئا فشيئا حتى صارت خرابا [١] .

(د) يقول المقريزى : لم ينتشر الإسلام فى قرى مصر إلا بعد المائة من تاريخ الهجرة عندما أنزل عبيد الله بن الحبحاب مولى سلول قيسا بالحوف الشرقى . فلما كان بالمائة الثانية كثر انتشار المسلمين بقرى مصر ونواحيها . وقد سبق حديثنا عن الهجرات العربية وبيان أهميتها فى نشر الإسلام .

(هـ) وقد تحدث سويرس بن المقفع عن موجات عدة من الدخول فى الإسلام تمت فى تلك الفترة . وهذه الموجات – من وجهة نظر علم اللغة – بغض النظر عن أسبابها الحقيقية قد قوّت إلى درجة كبيرة من مركز اللغة العربية . ونحن نشير هنا إلى الحالتين الآتيتين اللتين ذكرهما ابن المقفع:

١- فى ولاية حفص (بين عامى ١٢٤ هـ = ٧٤١ م و ١٢٨ هـ = ٧٤٥ م) اعتنق الإسلام آلاف من الأقباط يبلغ عددهم أربعة وعشرين ألفا [٢] .

٢- فى ولاية عون (من ١٣٣ هـ = ٧٥٠ م إلى ١٣٦ هـ = ٧٥٣ م ومن ١٣٧ هـ = ٧٥٤ م إلى ١٤١ هـ = ٧٥٨ م) فرضت ضرائب باهظة على الأقباط لدرجة أن كثيرا منهم تخلوا عن دينهم المسيحى وتبعوا عبدالله [٣] .

---

(١) جاك تاجر ص ٨٨ ، وانظر شكرى فيصل ص ١٥٣ و ١٥٤ ، ومصر الإسلامية للخربوطلى ص ٣٠ .

(٢) يبدو أن سبب اعتناق هذا العدد الكبير الإسلام فى عهد حفص أنه نادى بإعفاء كل ذمى من دفع الخراج . انظر : ترتون فى كتابه : أهل الذمة فى الإسلام ص ٣٨ .

(٣) يعنى الخليفة أبا جعفر عبدالله بن محمد .

ولسنا نزعم أنه بانتهاء هذه الفترة كان كل شخص يعرف اللغة العربية ، ولكننا نزعم على الأقل أنه بانتهائها كان كل شخص يعرف العربية يحس بمكانته فى المجتمع ويشعر أنه ابن من أبنائه بخلاف من أصر على تمسكه بلغته الأصلية، ولم يحاول تعلم اللغة العربية فقد أحس بانفصال عن المجتمع ، وشعر بغربة لايمكن أن يحس بها الشخص فى وطنه . وأقرب مثل لذلك ما ذكره الشماس يوحنا أنه بينما كان موسى مطران أوسيم فى طريقه للمثول بين يدى الخليفة مروان الذى لجأ إلى مصر عام ١٣٢ هـ = ٧٥٠ م ألقاه الجند أرضا وأخذوا يضربونه على عنقه وعلى أضلاعه ... ولم يستطع المطران أن يتفاهم معهم لأنه كان لايعرف اللغة العربية وكان محتاجا إلى مترجم ليترجم له ما يفوهون به .

الفصل الرابع

المرحلة الثالثة من الصراع

مرحلة النصر

هى آخر مراحل الصراع والتوتر ، وقد شملت بقية القرن الثالث الهجرى ومعظم القرن الرابع أو جميعه ، وتلتها مرحلة من الهدوء والاستقرار بدأت مع القرن الخامس . ويرجع ذلك للعوامل الآتية :

١- ازدياد الهجرات العربية خلال هذه المرحلة . ومن أشهر القبائل المهاجرة فى تلك الفترة :

(أ) قبيلة الكنز ، ففى سنة ٢٤٠ هـ = ٨٥٤ م فى خلافة المتوكل حدثت هجرة كبيرة إلى مصر من ربيعة ، حيث جاءت قبيلة الكنز وهى إحدى بطون ربيعة ، وتفرق رجالها فى جهات كثيرة ، ونزلت طائفة منهم فى أسوان وشمال النوبة . وفى سنة ٢٥٦ هـ رافقت ربيعة جهينة إلى البجة شرقا ، وكانت البجة تشن الغارات على القرى الشرقية فى كل وقت حتى أخربوها ، فقامت ربيعة بمنعهم من ذلك حتى كفوهم ثم تزوجوا منهم ، وفى ذلك الوقت أعيد كشف مناجم الذهب القديمة فى صحراء النوبة ، مما أغرى العرب على الإقبال على مصر العليا للاستيلاء على هذه المناجم . وخرجت قبيلة الكنز من ذلك بنصيب الأسد فكثرت أموالهم واتسعت أحوالهم [١] .

---

(١) انظر قبائل العرب فى مصر لأحمد لطفى السيد ٥٩/١ وانظر القبائل العربية لخورشيد ص١١٣

(ب) قبيلتا هلال وسليم اللتان هاجرتا فى القرن العاشر . فحين أصبح الفاطميون سادة فى شمالى إفريقية ، ونشروا نفوذهم على مصر والشام فى سنة ٣٨١ هـ = ٩٩١ م دعا الخليفة الفاطمى العزيز (٣٦٥ - ٣٨٦ هـ) قبائل هلال وسليم إلى النزول بمصر فهبطوها وأنزلهم الصعيد [١] .

وقد وضع جمال حمدان موجة بنى هلال وسليم على قدم المساواة مع موجة الفتح الإسلامى فى أثرها العروبى والتعريبى ، بل اعتبر هذه الموجة هى الحاسمة فى قضية التعريب قائلا : «لو اقتصر الأمر على موجة الفتح الإسلامى لما كان للعروبة والتعريب هذا الشأن الذى بلغته مصر . ولكن موجة مدّية جديدة عارمة دفعت بالعملية إلى مرحلة ومستوى جديدين تماما لاتقل إن لم تزد فى أثرها الجنسى عن موجة الفتح الإسلامى نفسه ، بحيث يمكن أن نفترض أو نتصور لمنحنى عملية تعريب مصر قمتين بارزتين لاقمة واحدة . هذه الموجة هى موجة بنى هلال وسليم» [٢] ،

(جـ) فى أول القرن العاشر الميلادى اضطرت سلالة جعفر الطيار إلى النزوح عن الحجاز تحت ضغط بنى الحسن فلجأت إلى مصر [٣] ،

٢- فى عام ٢١٦ هـ = ٨٣١ م نشبت أكبر ثورة فى البلاد انضم إليها عدد كبير من الأقباط وشملت الوجه البحرى كله . فاضطر المأمون إلى أن يحضر بنفسه إلى مصر ويخمدها بشدة . ويقول المقريزى فى ذلك : فلما كان فى

---

(١) المرجع قبل السابق ١/٥٥ .

(٢) شخصية مصر ٢/٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٩ .

(٣) قبائل العرب فى مصر ١/٦٣ ، ٧٠ .

جمادى الأولى سنة ٢١٦ انتقض أسفل الأرض بأسره عرب البلاد وقبطها ، وأخرجوا العمال وخلعوا الطاعة لسوء سيرة عمال السلطان فيها ، فكانت بينهم وبين عساكر الفسطاط حروب . وبعد هذه المعركة لم تقم للأقباط قائمة ودخل كثير منهم الإسلام . ويعلق المقريزى على إخماد المأمون للثورة قائلا : ومن حينئذ أذل الله القبط فى جميع أراضى مصر وخذل شوكتهم ، فلم يقدر أحد منه على الخروج ولا القيام على السلطان ، وغلب المسلمون على القرى .

٣- من الثابت أنه منذ القرن الثالث الهجرى أخذ عدد المسيحيين فى مصر يتناقص ، ولم يعد لهم أغلبية عددية هناك . ويعتبر عصر الحاكم بأمر الله (من ٣٨٦ هـ = ٩٩٦ إلى ٤١١ هـ = ١٠٢٠) نهاية النفوذ المسيحى فى مصر . وتنسب كثير من المراجع إليه اضطهاده للأقباط وإلزامهم بزى معين، ومنعهم من امتلاك العبيد واستخدام المسلمين ، بل وهدم كنائسهم ونهب ما فيها ، وإلغاء الاحتفالات بأعيادهم [١] .

ويعلق الدكتور جاك تاجر على عهد الحاكم بقوله : «إن هناك حقيقة واقعة لاسبيل إلى انكارها ، وهى أنه قبل أن يترك الحاكم عرشه قضى على نفوذ النصارى فى مصر . ومن ذلك الحين أصبح الأقباط مهملين فى الدولة ، وأصبح تاريخهم عبارة عن جملة أحداث ثانوية ، وفقدوا بعد ذلك شخصيتهم تدريجيا ليندمجوا فى سواد الشعب» .

وشيئا فشيئا زاد دخول الأقباط فى دين الإسلام ، ولم يأت القرن الثامن الهجرى = الرابع عشر الميلادى حتى كان عدد المسيحيين لايزيد على عشر مجموع السكان .

---

(١) أقباط ومسلمون ص ١٢٩ - ١٣٥ .

٤- فى عام ٢١٨ هـ = ٨٣٣ م صدرت أوامر الخليفة المعتصم العباسى إلى واليه على مصر كيدر بن نصر بتسريح الجيش العربى وشطب أفراده من ديوان الجند ، وقيد الأتراك فى مكانهم . وقد أدى هذا إلى تقليل النفوذ الرسمى للعرب فى مصر ، ولكنه فى نفس الوقت قوى من مركزهم الاجتماعى وبالتالى من مركز اللغة العربية . فلقد كانت النتيجة الحتمية هى محاولة العرب الجدية البحث عن وظائف مدنية لهم ، أو الاشتغال بالأعمال الحرة كالزراعة والتجارة ، والعمل على الاندماج فى السكان الأصليين ، والسعى لاكتساب صداقتهم ، وإنشاء علاقات أسرية معهم .

٥- استمرار إجراءات تعريب الدولة ، وصبغها صبغة إسلامية ، والتمسك بشرط الإسلام لمن يريد شغل أى وظيفة فى الدولة أو البقاء فى منصبه . وأشير فى ذلك إلى الأمثلة الآتية :

(أ) فى سنة ٢٣٥ هـ أصدر الخليفة المتوكل نشرة يحذر فيها من توظيف اليهود والنصارى فى الوظائف الرئيسية .

(ب) اعتنق اليهودى يعقوب بن كلس الإسلام بعد أن بلغه أن كافورا قال عنه: «لو كان مسلما لاستوزرته» . ثم خرج إلى المغرب حيث عاون الفاطميين على فتح مصر فجعله المعز أكبر مستشاريه وعينه أمينا على بيت المال .

(جـ) فى عهد الحاكم بأمر الله أصبح الإسلام شرطا أساسيا فى تولى الوظائف العامة وفصل الخليفة لذلك عددا كبيرا من أهل الذمة ، ولم يترك إلا من اتضح عدم إمكانية الاستغناء عن خدماتهم . ويصف سويرس بن المقفع ذلك الوضع بقوله : «إن الحاكم تقدم فى الحال بإثبات سائر المسلمين والمتعطلين والمتصرفين من الكتاب الذين يصلحون للخدمة

فى دواوينه وأعماله ليتخذ منهم من يستبدل به عوض النصاري.. فأسلم كثير من شيوخ الكتاب والمتصرفين وغيرهم من النصارى ، وتبعهم خلق كثير من عوامهم . وأسلم أيضا جماعة من اليهود ... وأسلم أكثرهم ، واقتدى بعضهم ببعض ، وتلاحقوا فلم يبق منهم إلا نفر يسير معدودين (كذا) ...» .

ونتيجة لكل هذه العوامل المختلفة صارت اللغة العربية مألوفة للأقباط ، وتعودوا سماعها . لقد أصبح من المستحيل على أى إنسان أن يقاوم هذا الاتجاه، أو يقف فى وجه تيار العربية . وحتى لو حاول ذلك فستقرع العربية أذنه فى كل لحظة وستصبح لغته الأم بمرور الوقت .

* * *

والسؤال الآن الذى لابد أن أختم بإجابته هذا الفصل هو : فى أى وقت – بالتحديد – حلت اللغة العربية محل اللغة القبطية فى مصر ، ومتى أصبحت اللغة العربية اللغة الوطنية لكل المصريين على السواء ؟

ونبدأ فنقول إنه ليس من السهل مطلقا أن نحدد عاما معينا ، أو فترة زمنية قصيرة تعتبر الحد الفاصل بين عهدين . وإنما لابد من توسيع الدائرة ، وفرض مجال زمنى واسع تم فى فترة ما من فتراته هذا التحول الكبير ، ونبدأ أولا فنعرض الآراء المختلفة التى قيلت حول هذا الموضوع ، ثم نثنى برأينا فيه :

١- يذهب القس رنودو Renaudot إلى أنه بعد فتح العرب لمصر بنحو قرن تلاشت اللغة القبطية نهائيا من معظم القطر المصرى ، ولم تعد تعرف إلا بين العلماء الذين كانوا يدرسون تلك اللغة دراسة خاصة [١] .

---

(١) انظر سيدة كاشف : مصر فى فجر الإسلام ص ٢٥٩ .

٢- يرى دى لاسى أوليرى De Lacy O'Leary أنه من الصعب تحديد الوقت الذى حلت فيه اللغة العربية محل القبطية باعتبارها لغة دارجة بين المصريين . ويرى أنه حتى القرن العاشر الميلادى ظلت اللغة القبطية لغة حية خارج الأديرة . ويؤيد رأيه بالحقيقة القائلة إنه خلال ذلك القرن ظهر نتاج من الشعر القبطى الشعبى وتم جمعه . وهو يحدد القرن التاسع الميلادى باعتباره قرن التحول الخطير فى تاريخ اللغة القبطية ، كما كان خطيرا فى تاريخ الأقباط .

٣- يرى آدم متز أن القبط لم يبدأو بترك لغتهم القبطية إلا نحو أواخر القرن الرابع الهجرى = العاشر الميلادى .

٤- يرى بول كهل Paul Kahle أنه فى القرن العاشر أو الحادى عشر الميلادى أصبحت اللغة العربية راسخة جدا باعتبارها اللغة الرسمية فى مصر .

٥- يرى كاتب مادة «قبط» فى دائرة المعارف الإسلامية أنه فى القرن الحادى عشر الميلادى - وربما قبل ذلك - لم تعد اللغة القبطية لغة مكتوبة .

٦- يرى الدكتور جاك تاجر أن اضمحلال القبطية حدث بالتدريج وعبر عن ذلك بقوله : «لقد كبتت اللغة العربية اللغة القبطية رويدا رويدا مثل النبات الذى حرم من الماء والشمس فى ظل شجرة كبيرة . لقد ظلت اللغة القبطية على قيد الحياة حتى القرن العاشر الميلادى بل ازدهرت فى الأديرة ولكنها منذ القرن الحادى عشر حرمت من العناية فذبلت بسرعة حتى إذا جاء القرن الثانى عشر كادت تلفظ أنفاسها» . ولكنه يرى أنها ظلت مزدهرة فى صعيد مصر مدة أطول .

٧- يؤكد المسيو ماسبيرو (مدير دار الآثار سابقا) أن سكان الصعيد كانوا يتكلمون ويكتبون باللغة القبطية حتى السنين الأولى من القرن السادس عشر فى أوائل حكم الأتراك .

٨- يرى برنس J.D. Prince أن اللغة القبطية ماتت كلغة حديث منذ نهاية القرن السابع عشر الميلادى . واستند فى ذلك إلى ما ذكره الرحالة الهولندى Van Sleb من أنه قابل رجلا عجوزا نحو عام ١٦٨٠ م يتكلم القبطية . ويرى أن الفترة الحرجة فى تاريخ اللغة القبطية فى مصر هى الفترة ما بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر ، إذ بينهما أخذت القبطية تتلاشى بالتدريج كلغة خطاب . ويعزز دعواه بما نقله عن المقريزى (فى القرن الخامس عشر الميلادى) من أنه وجد نساء الأقباط وأطفالهم فى الصعيد فى وقته يتكلمون القبطية غالبا . وينهى برنس رأيه قائلا : ولاشك أن اللغة القبطية قد بدأت تأخذ دورا ثانويا حتى قبل زمن المقريزى لأنه فى عام ١٣٩٣ م وجدت مخطوطات قبطية كتبت عليها تعليقات باللغة العربية ، مما يدل على أنه فى ذلك الوقت كانت اللغة العربية معترفا بها كلغة سائدة ، وأنها صار لها الاستعمال العام .

٩- يرى زكى شنودة أن اللغة القبطية بدأت تضمحل منذ القرن التاسع الميلادى . وما أن جاء القرن الثالث عشر حتى كانت قد دحرتها اللغة العربية وسادت عليها . ويرى أنها ظلت لغة تخاطب فى الصعيد حتى القرن السابع عشر الميلادى . ويحدد القرن التاسع عشر باعتباره نهاية زمن الكلام بالقبطية .

١٠- يرى الدكتور جمال حمدان أن العربية لم تسد فى مصر تماما ونهائيا إلا حوالى القرن الرابع عشر أى فى الوقت نفسه الذى اكتمل فيه اتجاه العرب من جانبهم إلى الاستقرار النهائى والتوطن والانصهار .

أما نحن فيتلخص رأينا فيما يأتى :

١- أنه لابد لكى يكون التحديد الزمنى دقيقا أن نميز بين ثلاثة أنواع من اللغة العربية :

(أ) اللغة العربية باعتبارها لغة الدواوين أو اللغة الرسمية للدولة .

(ب) اللغة العربية باعتبارها لغة الثقافة .

(جـ) اللغة العربية باعتبارها لغة التخاطب .

٢- أنه لابد كذلك أن نعترف بتفاوت انتشار اللغة العربية من منطقة إلى منطقة تبعا لقربها أو بعدها من مركز الحكم ، ولسهولة الوصول إليها أو صعوبته ، ولمدى فاعلية العوامل المختلفة التى سبقت الإشارة إليها ومن بينها التعريب والإسلام .

ومن أجل هذا فنحن نقترح التواريخ الآتية :

أولا : القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى) حين أصبحت اللغة العربية اللغة الرسمية للدولة ، بها تكتب الوثائق وتسجل المكاتبات الرسمية وتدون الدواوين. وفى حالة استعمال لغة غير العربية كان لابد من قرنها بترجمتها العربية . ونشير فى ذلك إلى الحقائق الآتية :

(أ) أن مجموعة وثائق البردى المصرية ، ومنها التى حققها أدولف جروهمان Adolf Grohmann وبدأت دار الكتب المصرية فى نشرها منذ عام ١٩٣٤، تقل فيها الوثائق المكتوبة بغير العربية أو ذات اللغتين . ومعظمها مكتوب باللغة العربة فقط . والوثائق تشمل فترة تبدأ من القرن الأول الهجرى وتمتد لعدة قرون .

(ب) ما سبق أن قلناه عن الاجراءات التى اتخذتها الدولة منذ نهاية القرن الأول الهجرى لتعريب الدواوين .

(جـ) فى إحدى المنازعات التى شجرت عام ١٣٢ هـ = ٧٥٠ م بين الملكيين واليعاقبة بشأن ملكية بعض الكنائس ، كتب البطريرك ميخائيل الأول إلى السلطات التماسا باللغة القبطية ، ولكنه أرفق به ترجمة عربية عملا بمشورة بعض المطارنة .

وليس معنى تعريب الدواوين أن اللغة العربية أصبحت لغة الثقافة أو لغة التخاطب . فكما أن اتخاذ اليونانية لغة الدواوين لم يجعلها لغة عامة قبل الفتح الإسلامى ، كذلك اتخاذ العربية فى الدواوين لم يجعلها لغة عامة .

ثانيا : القرن الرابع الهجرى (العاشر الميلادى) حين أصبحت اللغة العربية لغة العلم والثقافة لكل المصريين على السواء ، من أسلم منهم ومن لم يسلم . ويؤيد ذلك الحقائق الآتية :

(أ) ظهور مؤلفات باللغة العربية لمؤلفين أقباط لم تعرف لهم مؤلفات بغير العربية وأذكر من بينهم :

١- سعيد بن بطريق الذى كتب كتبا منها «كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق» و«كتاب البرهان» .

٢- سويرس بن المقفع المسيحى اليعقوبى الذى شغل منصب أسقف فى كنيسة أشمونين نحو عام ٩٨٥ م ، وكان رجلا خصبا فى كتاباته ومع ذلك فضل الكتابة باللغة العربية . وأهم ما كتبه مؤلفه المشهور «سير الآباء البطاركة» .

(ب) ماذكره سويرس بن المقفع فى مقدمة كتابه السابق الإشارة إليه الذى كتبه فى القرن الرابع الهجرى باللغة العربية ، من أنه ترجم مادة كتابه من اللغتين اليونانية والقبطية بعد أن وجد أقباط مصر فى عصره لايعرفون غير اللغة العربية . ونص عبارته : «فاستعنت بمن أعلم استحقاقهم من الإخوة المسيحيين وسألتهم مساعدتى على نقل ما وجدناه منها (يعنى سير الآباء البطاركة) بالقلم القبطى واليونانى إلى القلم العربى الذى هو اليوم معروف عند أهل هذا الزمان بإقليم ديار مصر لعدم اللسان القبطى واليونانى من أكثرهم» .

(جـ) من الثابت أن الأقباط – فيما بعد – كتبوا تاريخم بل ومقالاتهم الدينية باللغة العربية . وكان من أشهر كتاب الطائفة أبو شاكر بطرس ابن الراهب ، ومكين ، وأبو الفضائل ... ممن كانوا يجهلون اللغة القبطية .

(د) أن أوراق البردى الطبية القبطية التى نشرها Chassiant تستعمل بكثرة مصطلحات عربية كتبت بحروف قبطية وأحيانا بحروف عربية . لقد كتبها مؤلفون أقباط فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين استعملوا كلتا اللغتين القبطية والعربية ، ولكن بشكل يجعلنا نقول إنهم كانوا على علم باللغة العربية أكثر من علمهم باللغة القبطية . وقد كانوا كثيرا ما يفضلون استعمال المصطلح العربى على مقابله اليونانى أو القبطى .

(هـ) كتب ميخائيل السورى عن جبرائيل الثانى (من بطاركة اليعاقبة ، ١١٣١ – ١١٤٦ م) يقول : إنه كان بارعا فى اللغة العربية وخطها . ولما رأى أن الشعب المصرى يتكلم اللغة العربية ويكتب بها نظرا لطول عهد السيادة العربية اهتم بترجمة التوراة والإنجيل إلى العربية ، وكذلك بقية كتب الطقوس الدينية الأخرى ليستطيع الشعب فهمها .

ثالثا : القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى) حيث أصبحت اللغة العربية لغة التخاطب العامة لكل المصريين على السواء ، بدليل ما يأتى :

(أ) أنه فى ذلك القرن كان عدد المسلمين قد زاد بشكل ملحوظ ، فى حين تناقص عدد الأقباط تناقصا حادا بإسلام الكثيرين ، وهجرة عدد آخر إلى مناطق النفوذ البيزنطى .

(ب) أن رجال الدين المسيحى كانوا يعظون منذ القرن الرابع الهجرى باللغة العربية لكى يفهمهم سامعوهم فقد أشارت المراجع فى أحداث سنة ٤٠٠ إلى مراسم احتفال الأقباط بعيد لهم فقالت بأنهم يخرجون إلى شاطىء النيل ، ويصلون ، ويخطب الأسقف المرأس عليهم باللغة العربية ويدعو للسلطان ومن شاء من خواصه .

(جـ) أن أبا صالح الأرمنى ذكر أنه فى القرن السادس الهجرى كان المثقفون القبط فقط من بين رجال الكنيسة هم الذين يعرفون القبطية .

ومع ذلك فنحن نرى أن غلبة العامية العربية على القبطية ربما تأخر عن ذلك قليلا أو كثيرا فى بعض الأماكن النائية من قرى الصعيد ولكن ذلك بأى حال لايمكن أن يتجاوز قرنا أو قرنين آخرين ، ولا يمكن أن يكون له صفة العمومية . ولهذا فنحن نشك فى أن ماقاله المقريزى (القرن الخامس عشر) : «ونساء نصارى الصعيد وأولادهم لايكادون يتكلمون إلا بالقبطية الصعيدية ولهم أيضا معرفة تامة باللغة الرومية» - ينطبق على عصره . ونرى أنه نقله عن مرجع قديم لايتجاوز الفترة التى ذكرناها بدليل ماجاء فى آخر النص من أن نساء الصعيد لها معرفة تامة باللغة اليونانية[1]، إذ لاشك أن ذلك لم يكن فى عصره بأى حال من الأحوال.

---

(١) كان العرب يسمون اليونان بالروم واللغة اليونانية باللغة الرومية (ج . صبحى : قواعد اللغة المصرية القبطية ص ٦) .

أما داخل الأديرة وبين الرهبان ، فنحن نتوقع أن يوجد بعض من كانوا يتكلمون القبطية لمدة أطول من ذلك . ويذكر المقريزى فى خططه عن «دير موشه» أن «الأغلب على نصارى هذه الأديرة معرفة القبطى الصعيدى» . ولكن مرة أخرى لايمكن أن يكون لذلك صفة العمومية وإلا ما احتاج المقريزى إلى النص عليه بالنسبة لهذا المكان ، وبدليل ما ذكره بعض المؤرخين من أنه «لم يمض على الفتح قرن من الزمن حتى اضطر بعد الرهبان أن يلجأوا إلى المترجمين لقراءة النصوص القبطية» .

وأما ماذكره بعضهم عن وجود أناس يتكلمون اللغة القبطية حتى عصر متأخر فما هى إلا حالات فردية نادرة لايبنى عليها حكم ، وهى من ناحية أخرى ليست كافية للقول بحياة لغة ما . ولا يكفى لاعتبار اللغة حية أن يتكلمها فرد أو فردان عن طريق التعلم ، أو أن تكون لغة ثانية يصطنعها بعض الناس عن عمد أو تعصب . ومما يدل على ندرة من بقى يتكلم القبطية بعد تلك الفترة أن الرحالة إلى مصر على الرغم من تنقيبهم الشديد كان يصعب عليهم مقابلة أى شخص يعرف القبطية وإذا حدث ووجد أحدهم من يتكلمها كان يزعم أنه آخر شخص يتحدث بها .

ولكن لاتعنى هزائم اللغة القبطية المتتالية أمام هجمات العربية أنها لم تثبت وجودها فى أى فترة من فترات الصرع ، فقد فرضت نفسها لفترة ما كلغة حديث حتى على العرب أنفسهم ، وتعلمها الكثيرون منهم . وممن عرفوا بإجادتهم اللغة القبطية القاضى خير بن نعيم الذى كان يتكلم للخصوم الأقباط ويستمع لشهادة شهودهم باللغة القبطية .

كما لاتعنى هزيمة اللغة القبطية زوالها النهائى من الوجود ، فلابد أنها ظلت تدرس ويتخصص فيها من يريد على الرغم من اعتبارها لغة ميتة ، كاللغة اللاتينية مثلا التى تعد لغة ميتة ومع ذلك لاتزال تدرس حتى اليوم . ولذا فمن الطبيعى أن يوجد أناس حتى الآن يعرفون اللغة القبطية ، وربما يقدرون على الكلام بها ، ومن الطبيعى كذلك أن يهتم رجال الكنيسة القبطية بوجه خاص بهذه اللغة لكتابة كثير من تراثهم الدينى بها وإن كان Prince قد ذكر فى كتابه The Modern Pronunciation of Coptic أن «معظم الوعاظ الأقباط غير متخصصين فى اللغة القبطية ، ولذا فهم يكتفون بترديد الصلوات كالببغاوات باللسان القبطى مع ترجمة لها باللغة العربية» . كذلك ظلت اللغة القبطية حية حياة جزئية فى شكل بقايا وآثار اختلطت باللغة العربية وأصبحت جزءا لايتجزأ منها ، كما سنتحدث فيما بعد .

أما إلى أى مدى بلغ هذا التأثير ، فهو ما سنعالجه – مع قضايا أخرى – فى الباب الثانى إن شاء الله .

الفصل الخامس

النهضة الثقافية فى مصر

وأثرها على اللغة العربية

كانت مصر منذ اللحظة الأولى للفتح الإسلامى مركزا كبيرا للثقافة العربية، وجامعة إسلامية تغص بالعلماء والدارسين فى مختلف التخصصات . وكانت فى قرونها الإسلامية الأولى بمثابة منارة علمية تشع نورها على كل البلاد المجاورة ، ويؤمها الطلاب من المشرق والمغرب للتزود من علمها الغزير والنهل من موردها العذب .

ويضيق بنا المقام لو أردنا أن نتحدث فى هذا الفصل عن جهود مصر المتعددة فى مجالات العلم المختلفة ، ولذا سنقصر حديثنا على الفروع التى تخص الثقافة العربية والإسلامية والتى كان لها أثر قريب أو بعيد فى النهوض بمستوى اللغة العربية فى مصر والارتقاء بأساليب الكتابة والإنشاء ، كما كان لها أثر كبير فى مساعدة الأجانب عن اللغة على تعلمها ، ومد يد العون لمن يريد إجادة فن الكتابة لينفتح أمامه سبيل العمل فى الدواوين والمصالح الحكومية . وسوف نقصر حديثنا على المجهودات التى تمت حتى نهاية القرن الرابع الهجرى ، وهو القرن الذى اعتبرناه نقطة التحول فى لغة الثقافة فى مصر ، وقرن انتصار العربية على القبطية وصيرورتها لغة التأليف للمسلمين والأقباط على السواء .

* * *

أما فى مجال الدراسات الإسلامية فقد كانت الريادة لأولئك العرب الذين صاحبوا جيش الفتح من الصحابة أو وفدوا بعده بقليل ، واتخذوا مصر موطنا لهم، وعاشوا فيها فترة من الزمن ، طالت أو قصرت .

وقد كان من أشهر علماء القراءات الذين قصدوا مصر فى وقت مبكر جدا الصحابة عبيد بن عمر الذى شغل منصب أول قارىء رسمى فى مصر ، وعقبة ابن الحارث الفهرى . وتلاهم جيل من التابعين ، منهم عبدالرحمن بن هرمز تلميذ أبى هريرة ، وعبدالله بن العباس الذى اختار الإسكندرية موطنا له ، وتوفى عام ١١٧ هـ = ٧٣٥ م .

أما رجال الحديث فكان فى مقدمتهم الصحابى الشهير أبو هريرة راوى أكبر عدد من الأحاديث النبوية ، وقد جاء إلى مصر فى عهد مسلمة بن مخلد (من ٤٧ هـ = ٦٦٧ م إلى ٦٢ هـ = ٦٨١ م) ، وكذلك الصحابة عبدالله بن عمر ابن الخطاب ، الذى جاء مع جيش الفتح إلى مصر ، وعبدالله بن العباس ، وجابر ابن عبدالله ، وعبدالله بن عمرو بن العاص ، وأبو ذر الغفارى ، وسعد بن أبى وقاص . وتلاهم جيل من التابعين خصص السيوطى فصلا لتعداد أسمائهم فى كتابه «حسن المحاضرة» .

ومن أشهر من اشتغلوا بالقانون الإسلامى وإصدار الفتاوى الدينية سليم ابن عتر التجيبى الذى أصبح كبير القضاة فى مصر عام ٤٠ هـ = ٦٦٠م وتوفى عام ٧٥ هـ = ٦٩٤ م . ومنهم عبدالرحمن بن حجيرة الذى عين كبير القضاة فى عهد عبدالعزيز بن مروان (من ٦٥ هـ = ٦٨٤ م إلى ٨٥ هـ = ٧٠٤ م) واشتهر بآرائه السديدة وفتاواه الموفقة فى المسائل الفقهية المشكلة . وأخيرا نافع مفتى المدينة ، الذى أرسله عمر بن عبدالعزيز إلى مصر ليتولى منصب الإفتاء فيها .

ومع مطلع القرن الثانى الهجرى بدأ أول جيل من المصريين يقتحم الميدان ويسهم بدوره فى إقامة صرح الدراسات الإسلامية .

وأول قارىء مصرى ذاع صيته داخل البلاد وخارجها كان عثمان بن سعيد الملقب بـ «ورش» الذى ولد عام ١١٠هـ = ٧٢٨ م ، وتتلمذ على نافع بن عبدالرحمن أحد القراء السبعة . وتوفى ورش عام ١٩٧ هـ = ٨١٢ م . وعاصره جمع آخر من القراء المحليين لم يشتهروا شهرته مثل سقلاب بن شيبة ، وعبدالله ابن وهب، ومعلى بن دحية ، وأشهب بن عبدالعزيز . ثم ظهر جيل ثالث ، وتضاعف عدد القراء بشكل ملحوظ . ولم يأت النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى حتى كانت كتب كثيرة قد ظهرت فى مصر تتناول فن القراءات والتفسير القرآنى . ومن أشهر من ألف فى هذين الموضوعين العالم المصرى الشهير أبو جعفر النحاس (توفى سنة ٣٣٨ هـ = ٩٥٠ م) الذى ألف «إعراب القرآن» و «معانى القرآن» و «الناسخ والمنسوخ» و «الوقف والابتداء» . ومن حسن الحظ أنها وصلتنا جميعا .

أما مجال التأليف فى الحديث النبوى فكان أسبق من مجال التأليف فى القراءات والتفسير ، إذ إن أقدم مجموع وصلنا هو ذلك الذى كتبه عبدالله بن وهب (ولد عام ١٢٥ هـ = ٧٤٢ م) بعنوان «الجامع فى الحديث» . وقد عثر على جزء كبير منه مؤخرا فى «إدفو» فى صعيد مصر . ومما هو جدير بالذكر كذلك أن أصحاب الكتب الستة من رجال الحديث قد زاروا مصر بحثا عن مادة جديدة، ومنهم من زارها أكثر من مرة ، مثل «النسائى» الذى غادرها لآخر مرة عام ٣٠٢هـ = ٩١٤ م .

وأول فقيه مصرى عرف كمجتهد كان يزيد بن أبى حبيب الذى شغل منصب مفتى مصر ، ثم تلاه عدد من الفقهاء المصريين الذين نافسوا أصحاب

المدارس الفقهية الأربع المشهورة مثل ، الليث بن سعد (ولد بمصر عام ٩٤ هـ = ٧١٢ م) ، وتلا ذلك جيل كبير من الفقهاء الذين ناصروا مدرسة فقهية معينة ، كمدرسة مالك أو الشافعى أو أبى حنيفة .

وقد كانت شهرة مصر فى مجال الدراسات الإسلامية معروفة فى كل أنحاء العالم الإسلامى ، وكثيرا ما استشير علماؤها فى مشكلات أثيرت خارج حدودها . ومن ذلك ماراواه الكندى من أن الخليفة عبدالملك بن مروان كتب إلى والى مصر يسأله أن يرسل إليه برأى فقهاء مصر فى عدة المطلقة ثلاثا . وقد جذبت هذه الشهرة علماء كثيرين وفدوا إلى مصر للاستفادة من علمها ، وهذا بدوره أفاد علماء مصر وربطهم بجوانب مختلفة من التفكير . ومن بين من قصدوا مصر من كبار العلماء الإمام الشافعى ، والإمام الطبرى المؤرخ والمفسر المشهور (وصل مصر عام ٢٥٣ هـ = ٨٦٧ م) .

* * *

وأما فى مجال الأدب فلم تنبغ مصر طوال حكم الأمويين ، وكل ما وصلنا عن هذه الفترة أبيات شعرية قليلة منسوبة إلى شعراء زائرين .

ولكن مع مطلع العصر العباسى بدأ الشعر المصرى يحقق تقدما ملحوظا ، وظهر إلى جانب الشعراء الزائرين شعراء مصريون ، مثل سعيد بن عفير (ولد فى مصر عام ١٤٦ هـ = ٧٦٣ م) ، ومعلى الطائى . ومع قيام الدولة الطولونية حقق الأدب تقدما آخر أخذ أشكالا ثلاثة :

١- الشعر : انتعش الشعر أيام حكم الطولونيين نتيجة لتشجيع الحكام وإغداقهم الجوائز والهبات على الشعراء ، مما جذب الشعراء من الخارج من ناحية ،

ونهض بالشعر المصرى من ناحية أخرى ، وعلى رأس الشعراء المصريين نجد الحسين بن عبدالسلام المسمى بالجمل الأكبر (ولد سنة ١٧٠ وتوفى سنة ٢٥٨) ، والحسين المسمى بالجمل الأصغر والقاسم بن يحيي بن معاوية ومنصور بن إسماعيل بن عمر . ويقال إن أسماء الشعراء الذين كانوا يترددون على بلاط أحمد بن طولون كانت تملأ اثنتى عشرة كراسة .

٢- النثر : فى هذه الفترة وجهت عناية أكبر «بديوان الإنشاء» وأصبح مطمح كل كاتب أن يشغل منصبا فيه . وقد أدى هذا بالكتاب أن يحاولوا إجادة اللغة العربية والتلاعب بأساليبها ، كما أدى إلى ظهور مؤلفات تأخذ بيد الكتاب الناشئين ، وتبذل لهم النصيحة ، وترشدهم إلى كيفية الارتقاء بأساليبهم . وأشهر كتاب ظهر فى تلك الفترة كتابة «صناعة الكتاب» لأبى جعفر النحاس . والكتاب لم يصلنا ، ولكن من اقتباسات «صبح الأعشى» منه يمكننا أن نقول إنه يشتمل على نصائح عامة تفيد من يريد أن يحترف مهنة الكتابة ، ويحوى قائمة بالألقاب الرسمية التى يجب أن يخاطب بها كل شخص بحسب منصبه، ويبين مقادير قطع الورق وما يناسب كل مقدار من الأقلام ، ويعطى نماذج مختلفة لبدايات الرسائل ونهاياتها ، وقواعد مختصرة للهجاء ، ويعرف بوظائف الدولة واختصاصات كل منها ، ويشرح المصطلحات المستعملة فى الرسائل الديوانية . وهو إلى جانب ذلك يقدم نماذج للرسائل الديوانية والإخوانية على مختلف العصور . وهذا قالب للرسالة الديوانية كما اقترحها أبو جعفر النحاس ننقله عن «صبح الأعشى» .

«وقد اختلف فى تقديم الاسم والكنية واللقب . والذى رتبه أبو جعفر النحاس فى صناعة الكتاب تقديم الاسم على الكنية وتقديم الكنية على اللقب ، مثل أن يقال

(من عبدالله فلان أبى فلان الإمام الفلانى أمير المؤمنين)» . ثم قال : وهذه المكاتبة هى التى اصطلح عليها فى الأمور السلطانية التى تنشأ بها الكتب من الدواوين ... وترتيب المكاتبة على ما ذكره فى صناعة الكتاب أن يكتب : (من عبدالله فلان أبى فلان الإمام الفلانى أمير المؤمنين ، سلام عليك ، فإن أمير المؤمنين يحمد الله إليك الله الذى لا إله إلا هو ، ويسأله أن يصلى على محمد عبده ورسوله) ثم يفصل ببياض يسير ويكتب : (أما بعد فإن كذا وكذا) ثم يأتى على المعنى . فإذا فرغ من ذلك وأراد أن يأمر بأمر يفصل ببياض يسير ثم يكتب : (وقد أمر أمير المؤمنين بكذا ورأى أن يكتب إليك بكذا) فيؤمر بامتثال ما أمر به والعمل بحسبه ثم يفصل ببياض ويكتب : (فاعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين واعمل به إن شاء الله تعالى ، وكتب فلان ابن فلان) باسم الوزير واسم أبيه (يوم كذا من شهر كذا من سنة كذا) . وقد يكتب فى أواخر المكاتبة بعد استيفاء المقصد (هذه مناجاة أمير المؤمنين لك) أو (هذه مفاوضة أمير المؤمنين لك) .

ومما يدل على أهمية كتاب النحاس واحتلاله مكانا فريدا بين أقرانه أننا نجد القلقشندى فى كتابه «صبح الأعشى» يعتمد – فى الفصول المتناظرة – على هذا الكتاب إلى درجة كبيرة ، وتبلغ اقتباساته منه نحو المائة . وهناك صفحات كاملة من «صبح الأعشى» مأخوذة بنصها من كتاب النحاس .

ومما هو جدير بالذكر كذلك أنه ظهر فى ذلك الوقت فى مصر لأول مرة مجموعة من القصص القصيرة كتبها مصرى صميم هو «ابن الداية» ، وعرفت هذه المجموعة باسم «المكافأة» . وقد ولد هذا المؤلف فى مصر عام ٣٤٠ هـ = ٥٩١ م واسمه أحمد بن يوسف .

٣- الدراسة الأدبية : وقد ظهر فى هذه الفترة مجموعة من الدراسات الأدبية والنقدية ومن بينها كتاب «النقائض» لأبى العباس أحمد بن ولاد (توفى عام ٣٣٢ هـ = ٩٤٣ م) و «أخبار الشعراء» و «شرح المعلقات» و «معانى الشعر» و «شرح الحماسة» ، وجميعها لأبى جعفر النحاس .

* * *

فإذا انتقلنا إلى ميدان الدراسات اللغوية رأينا نشاطا لايقل عن نظيره فى سائر أنحاء العالم الإسلامى ، وإن بدأ متأخرا بعض الشىء . وأول اسم يطالعنا لشخصية لغوية هامة تفد إلى مصر هو اسم عبدالرحمن بن هرمز تلميذ أبى الأسود الدؤلى واضع علم النحو - فى بعض الروايات . وقد أقام ابن هرمز بالإسكندرية إلى أن توفى عام ١١٧ هـ .

ومع مطلع القرن الثالث الهجرى غصت مصر باللغويين والنحاة ، ونشطت فيها الحركة اللغوية إلى حد كبير . وعلى رأس اللغويين الأجانب الذين وفدوا إليها نجد أسماء مثل :

١- محمد بن يحيي اليزيدى الذى جاء مع المعتصم إلى مصر (عام ٢١٤ هـ = ٨٢٩ م) ومات بها تاركا عدة كتب منها : «النوادر» و «المقصور والممدود» و «مختصر النحو» و «النقط والشكل» .

٢- أبو على أحمد بن جعفر الدينورى الذى توفى فى مصر عام ٢٨٩ هـ = ٩٠٢ م . وقد كتب خلال إقامته بمصر كتابا فى النحو سماه «المهذب» .

٣- على بن سليمان الأخفش الذى جاء إلى مصر أكثر من مرة إحداها عام ٢٨٧هـ = ٩٠٠ م وغادرها لآخر مرة عام ٣٠٦ هـ = ٩١٨ م ومات ببغداد

عام ٣١٥ هـ = ٩٢٧ م . ومن مؤلفاته كتاب «التثنية والجمع» ، وكتاب «شرح سيبويه» فى خمسة مجلدات .

ومنذ أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع أخذت الدراسات اللغوية المصرية تشق طريقها بنفسها ، وتقف على قدميها وحدها ، وتنافس نظيراتها فى سائر أنحاء العالم الإسلامى . وظهر لأول مرة مؤلفون مصريون متفوقون ، انضمت جهودهم إلى جهود الوافدين من البلاد الأخرى فخلقت حركة لغوية نشيطة أثارت إليها انتباه العالم الإسلامى كله . ومن أشهر الوافدين فى تلك الفترة أبو بكر الدينورى وأبو جعفر أحمد بن عبدالله بن مسلم بن قتيبة والأخوان الحسن والحسين بن الوليد . أما اللغويون المصريون فكانوا كثيرين ومتفاوتين فى الشهرة وفى الإنتاج العلمى ، ولكن كان على رأسهم ثلاثة هم : كراع النمل واسمه على ابن الحسن الهنائى (توفى ٣١٠ هـ = ٩٢٢) . وابن ولاد واسمه أبو العباس أحمد بن محمد بن وُلاد (توفى ٣٣٢ هـ - ٩٤٣ م) والنحاس واسمه أبو جعفر أحمد بن محمد بن إسماعيل (توفى ٣٣٨ هـ = ٩٥٠ م) .

أما كراع فقد ترك آثارا لغوية كثيرة أشهرها «المنجّد» الذى يعالج مشكلات المشترك اللفظى ويعرض كثيرا من ألفاظه ، و «المنتخب» الذى يحوى نتفا مختلفة لمباحث علم اللغة ومنها نسخ مخطوطة متنوعة فى دار الكتب المصرية وغيرها . كما بث كراع فى ثنايا كتبه آراء ناضجة فى كثير من مشكلات علم اللغة وأصوله.

وأما ابن ولاد فقد ترك آثارا منها : «المقصور والممدود» الذى يعالج مشكلات الكلمات المقصورة أو الممدودة ، ويذكر طريقة هجائها ، ويحصر مفرداتها . وقد طبع الكتاب طبعتين حتى الآن . ومن آثاره «الانتصار لسيبويه على

المبرد» الذى اتخذ جانب الدفاع عن سيبويه فى مسائل الخلاف بينه وبين المبرد ، وتوجد منه نسخ مخطوطة فى دار الكتب المصرية وغيرها . وكان لابن ولاد آراء تقدمية فى كيفية تقعيد القواعد وفى أصول النحو تعد حتى الآن من أنضج ما قيل فى الموضوع .

وأما أبو جعفر النحاس فكان نسيج وحده ، ولم يترك بابا من أبواب الدراسات الإسلامية إلا طرقه وألف فيه . كتب فى القراءات ، وفى التفسير والحديث ، وفى الناسخ والمنسوخ ، وفى النحو وفقه اللغة ، وفى الأدب ودوائر المعارف ، وكان فى كل ما يكتب موفقا . ومما تركه فى مجال الدراسات اللغوية : «إعراب القرآن» و «المقنع فى الخلاف بين البصريين والكوفيين» و «الكافى فى النحو» و «شرح أبيات سيبويه» و «شرح كتاب سيبويه» و «كتاب الاشتقاق» و«خلق الإنسان» و «التفاحة فى النحو» . والكتاب الأخير ذو أهمية كبيرة – فى نظرنا – بوجه خاص ، لأنه وضع تلبية لحاجة الناشئة ، وكتب فى أسلوب ميسر وبطريقة أقل ما توصف به أنها سهلة مبسطة . والكتاب يلخص النحو كله فى بضع ورقات، ويقدم للدارس المبتدىء عصارة القواعد النحوية العملية ، منحيا جانبا كل مالا يفيد فى تقويم النطق وتصحيح البيان ، وكل الخلافات اللفظية والمناقشات الفلسفية التى تمتلىء بها كتب السابقين . وأغلب ظننا أنه كتب بهدف تقريب نحو اللغة العربية للأجانب وبقصد مساعدتهم فى دراسته ، ولذا اختار مؤلفه له اسما جذابا هو «التفاحة» . ويعد الكتاب ثورة على الطريقة التقليدية فى دراسة النحو العربى ، ولعله أول كتاب يصلنا وهو يحوى تطبيقا فعليا للمنهج الوصفى فى دراسة اللغة . ومن أمثلة ذلك قوله :

١- الفاعل مرفوع أبدا تقدم أو تأخر . وهذا يعنى أن «محمدا» فى الجملة «قام محمد» أو «محمد قام» تعرب فاعلا . وهذا يخالف التحليل التقليدى للجملة الثانية الذى يعتبر الفاعل ضميرا مستترا تقديره «هو» ويعرب «محمد» مبتدأ والجملة من الفعل والفاعل بعده فى محل رفع خبر ذلك المبتدأ .

٢- عد أبو جعفر النحاس من بين حروف الجر الكلمات «أعلى» و «أسفل» و«خلف» و «قدام» و «وراء» و «أمام» و «فوق» وأشباهها . وهذا خروج على النحو التقليدى الذى يعتبرها كلها ظروفا . وقد كان النحاس موفقا فى فكرته هذه وطرحه جانبا الرأى التقليدى ووصوله إلى هذا الرأى الجديد الذى ينظر إلى الأثر الإعرابى فحسب . وأى فرق بين قولنا : «الكوب على المائدة» و «الكوب فوق المائدة» ؟ لا فرق بينهما عندنا وعند النحاس وإن كان القدماء قد اعتبروا «على» حرف جر ، وما بعدها مجرورا بها ، واعتبروا «فوق» ظرفا وما بعدها مضافا إليه .

* * *

ولم يقف دور مصر فى تلك الفترة عند التأليف والتنقيب ، وإنما تجاوز ذلك إلى تمثل الثقافة الإسلامية وهضمها ثم إخراجها فى صورة مبتكرة . وقد كانت مصر بمثابة القنطرة التى عبرت عليها الثقافة العربية من الشرق إلى الغرب ، وكانت ملتقى للدارسين من شتى البقاع ، وجامعة إسلامية يقصدها الطلاب من مختلف أنحاء العالم الإسلامى . ولم يكتب للمؤلفات المصرية الرواج داخل مصر وحدها ، وإنما فى المغرب والأندلس كذلك . وحتى نهاية القرن الرابع الهجرى كانت بلاد المغرب والأندلس تعتمد اعتمادا كليا فى دراستها العربية الإسلامية

على مصر . ولم تنضج تلك الدراسات هناك إلا على يد المبعوثين الذين زاروا مصر ودرسوا فيها ثم عادوا إلى أوطانهم يحملون الزاد ويدرسون المؤلفات المختلفة التى تلقوها فى مصر ، ومن بينها المؤلفات المصرية . وقد وجدنا أن كل مؤلفات ابن ولاد وثلاثة عشر مؤلفا من بين مؤلفات أبى جعفر النحاس قد دخلت الأندلس فى وقت مبكر جدا قد يكون فى حياة المؤلفين أو بعد وفاتهما بقليل . كما وجدنا مؤلفات كراع النمل منتشرة جدا فى بلاد المغرب بخاصة . ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى الحقائق التالية :

١- من بين تلاميذ النحاس - الذين استطعت التوصل إليهم - وعددهم أربعة عشر تلميذا وجدت ثلاثة مصريين فقط . أما الباقون فمن بلاد مختلفة .

٢- من بين الأسماء الخمسمائة الأولى فى كتاب «ابن الفرضى» تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس وجدت خمسة وخمسين اسما على الأقل لأناس درسوا فى مصر .

٣- هناك اقتباسات كثيرة من كتب المصريين فى الكتب المتأخرة ، وأخص بالذكر ما يأتى :

(أ) فى الجزأين الأول والثانى من كتاب «الجامع لأحكام القرآن» للقرطبى يوجد نحو ستين اقتباسا من أبى جعفر النحاس .

(ب) فى «صبح الأعشى» للقلقشندى نجد أكثر من مائة اقتباس من «صناعة الكتاب» للنحاس .

(جـ) فى «لسان العرب» نجد أكثر من سبعمائة اقتباس من مؤلفات كراع النمل .

وقد كانت مراكز الثقافة فى مصر متعددة ومتنوعة ، وكان كل مركز منها يقوم بدوره الخاص فى نشر الثقافة الإسلامية ، وكثير منها كان مشمولا برعاية الحكام وذوى الثراء . وأشهر تلك المراكز :

١- المسجد : وقد كان أهم مركز ثقافى فى تلك الفترة . وكانت أشهر المساجد فى مصر خلال تلك الفترة هى : جامع عمرو بن العاص ، وجامع أحمد بن طولون ، ثم الجامع الأزهر . ففى جامع عمرو كانت تلقى دروس دينية منذ عام ٣٨ هـ = ٦٥٨ م . وفيه كان الإمام الشافعى يلقى دروسه ومحاضراته، وكذلك الإمام الطبرى . وفى عهد الإخشيديين (من سنة ٣٢٣ هـ = ٩٣٤ م إلى ٣٥٨ هـ = ٩٦٨ م) كان فيه ثلاث وثلاثون حلقة خاصة بالدروس الفقهية. وأما جامع ابن طولون فقد انتقل إليه الطبرى بعد بنائه ، وكان أحمد بن طولون يجرى عليه الأوقاف ويخصص لعلمائه المرتبات . وبعد تشييد الجامع الأزهر انتقل النشاط الدينى إليه ، وأصبح مركزا للدعاية الفاطمية . وليس أدل على اتساع النشاط العلمى فى ذلك الوقت من أن المقدسى الذى زار مصر فى القرن الرابع الهجرى سجل ملاحظة خطيرة فحواها أنه وجد مساجد مصر مزدحمة بالطلاب بشكل لم يره فى أى بلد إسلامى آخر . وذكر أنه عد حلقات أحد هذه المساجد فوجدها تبلغ مائة وعشر حلقات .

٢- (صالونات) الحكام : كذلك قامت (صالونات) الحكام وذوى الثراء بدور كبير فى نشر الثقافة الإسلامية وتشجيع البحث العلمى ، فكانت تعقد فيها اجتماعات دورية وحلقات علم مستمرة . وكان من تقاليده أن يحضر الحكام والوجهاء هذه الاجتماعات ويشاركوا فى المناقشة ويثيبوا المتفوق فيها . وقد بدأت شهرة هذه المجالس منذ قيام الدولة الطولونية وتضاعفت شهرتها فى

عهد الفاطميين . ونشير بوجه خاص إلى الاجتماعات الدورية التى كانت تعقد فى (صالون) الوزير «ابن كلس» والتى كان يحضرها القضاة والفقهاء والشعراء والنحاة والمحدثون وكل ذوى الحيثية فى المجتمع . وليس هذا فحسب ، بل شاركت مصر فى الاجتماعات العلمية والمؤتمرات التى كانت تعقد فى الخارج . ومن ذلك ما حدث عام ٣٢٦ هـ = ٩٣٧ م حين انعقد مؤتمر علمى فى بغداد بإشراف الوزير الفضل بن جعفر بن الفرات ، وأرسلت مصر ممثلها الرسمى لحضوره .

٣- دور الكتب : وقد انتشرت دور الكتب الخاصة خلال تلك الفترة وتنافس الأغنياء والعلماء فى اقتناء نوادر المخطوطات . وبناء على ما ذكر ابن خلكان كانت مكتبة العزيز الفاطمى حافلة لدرجة أنه احتاج إلى تعيين «أمين» ليديرها وينظمها . ويخبرنا المقريزى أن هذه المكتبة كانت تحوى ثلاثين نسخة من كتاب «العين» أول معجم عربى ، بينها نسخة بخط المؤلف نفسه ، كما كان يوجد بها عشرون نسخة من تاريخ الطبرى ، ومائة نسخة من معجم الجمهرة لابن دريد .

٤- محلات الوراقة وبيع الكتب : ففضلا عن دورها فى نسخ المخطوطات وبيعها كانت مركزا يلتقى فى الدارسون ويتجاذبون الحديث ويديرون المناقشة . وكانت هذه المحلات تتركز فى سوق قرب جامع عمرو بن العاص وتغص بالباحثين ، وبخاصة فى زمنى الطولونيين والإخشيديين [1] ،

---

(١) هذا الفصل ملخص عن رسالتى للدكتوراه :
Arabic Linguistic Studies in Egypt .